المكتبة الثقافية

الشاعر نجيب سرور: مسرح الأزمة

خيرى شلبى

المكتبة الثقافية

٤٤٩

الشاعر نجيب سرور: مسرح الأزمة

تأليف

خيري شلبي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

اهـــــداء

الى شوارع مصر القاهرة ..

التى تشرد فيها حلم نجيب سرور وتبدد .

والى ساشا نجيب سرور . .

التى عشقت الحلم المصرى ودفعت الثمن .

« خيرى شلبى »

مدخـــل

يمثل الشاعر الفنان الراحل « نجيب سرور » ظاهرة فنية اجتماعية فريدة ، يمكن أن تتمثل فيها محنة أمة كاملة توارثت القهر واستمرأت حب تعذيب النفس واستعذاب الألم · أورثها الاستعمار المتصل فقدان الثقة بنفســـها فتدهورت طلائعها ومرغت مواهبها وقدراتها فى رغــام اللامبالاة ، كما دمرت الطلائع بعضها بعضا تحت سيطرة الأحقاد العمياء الناتجة عن التمزق والحرمان من دفء المودة والرعاية والتشجيع وجدوى التضحيات ·

واذا كانت الحركة الثقافية العربية تعانى من أمراض مزمنة تتفسخ فيها تحت ستار شعارات وهمية جائرة مابين اليسار واليمين تارة والايمان والالحاد تارة أخرى ·· مما أمات فيها الضمير وحولها ـ بوعى منها أو بغير وعى ـ الى أدوات تخدم مصالح قوى أجنبية كبرى تنتفع منها قوى محلية صغرى تحصل على الفتات ·

ومن معالم المرض فى حركتنا الثقـــافية العربية أن واحدا من الجيل قد يطغى على بقية الجيل ويأكل حقه اذ يحظى بكل شىء من الاهتمام والتمجيد • وأحيانا يشاركه واحد آخر فى أحسن الأحوال ، ليكون قدرنا على الدوام وجود اثنين كعلمين على جيل من الأجيال الفنية • وتظل أجهزة الاعلام سنوات طويلة تجدد الاحتفال بذكرى هذا أو ذاك ممن حظوا بكل شىء فى حياتهم ، كأنما القدر لايكتمل الا بأن يعيش المحظوظ على حساب التعساء حيا وميتا !! • ومن تحتفل بهم أجهزة الاعلام كل عام ليســوا بالقطع أفضل العناصر بل ليسوا يمثلون أجيالهم على الحقيقة ، بل ، وأقولها بكل جراة ـ قد لايمثلون حتى أى شىء ذا قيمة يعتد بها !! انما هو الحظ وحده وسط عالم تحكمه العلاقات الانتهازية والمنافع الشخصية على حساب القيم الفكرية والجمالية والأخلاقية بوجه عام •

هذه حقا هى محنة الأجيـال وهى الصـــخرة التى تتحطم عليها احلامهم وطموحاتهم ، وهى كذلك أحد وجوه محنة الشاعر الكبير « نجيب سرور » ومصدر من مصادر عذاباته المؤلمة • لقد كان من أبرز رواد حركة الشـــعر الحديث قبل سفره الى البعثة ، ثم تعمق فى دراسة الفن المسرحى فبات فنانا شاملا كبير الحجم فيه الشاعر الكبير والمؤلف المسرحى الكبير والمخرج المسرحى الكبير والممثل الكبير • ومع كل هذه المواهب والامكانات لم يجد شفيعا له وسط مجتمع متفسخ يموج بالأحقاد والخوف والهزيمـة

الداخلية المنكرة ، وفوجىء فى سنوات النضج العظيم أنه محكوم عليه ـ بموجب قدر غاشم أعمى ـ أن يعيش حياة متدنية لا توفر له ما يقيم الأود ، لاتحترم انسانيته بله أن تحترم فنه وفكره ! فى حين يرتع الانتهازيون والامعات فى رغد من العيش وأبهة المناصب والمراكز الزائفة ٠

كذلك فوجىء أن الكلمة الشريفة ضائعة مهانة لا تجد أذنا صاغية ، وحاملها منبوذ يجب تجريمه أحيانا ٠ أما الشعب المسكين فمضلل بأنصاف الحقائق وقضيته ضائعة بين الخلافات الشخصية فى محيط المثقفين والرواد ٠ ان التاريخ السرى للثقافة المصرية بالذات حين يقدر له أن يكتب فلا بد أن يكشف عن أسرار مذهلة يترتب عليها فهم التاريخ المعاصر كله ٠

وكان لابد للشاعر الصادق المتحمس أن يخوض صراعات مذهلة لكى يعيش فقط فضلا عن أن يحمل هموم التعبير عن محنة الناس وآلامهم ٠ ثم انه فوجىء بالطامة الكبرى فى بداية السبعينات وأواسطها ، حين ألغيت بجرة قلم ـ أكبر وأضخم قضية وطنية تربت عليها الأجيال وتلبستها وتأهلت بها لخوض غمارها ، تلك هى قضية الصراع العربى الاسرائيلى التى عطلت فى أواخر السبعينات أو توقفت تحت ستار السلام ، ولما كان الشعب المكبوت الجائع الضائع يتوق الى لحظة الانعتاق من الهموم

الأزلية والمسئوليات التى بلا نهاية،الملقاة على عاتقه،لذلك ما صدق أن سمع بفرية السلام حتى انطلق يعيش حياته بأثر رجعى ، وقد وقر فى وهمه أن الحياة قد انفتحت أمامه ، ولم يكن يدرى أن استعمار الدولار سوف يجثم على أنفاسه ليحوله الى حيوان استهلاكى مبهور بالسلع التكنولوجية يستهلك عمره فى خدمتها والترويج لها دون أن يخلف شيئا حقيقيا أو يساهم فى الابداع العالمى بأى قدر • صحيح أنه سيفيق حتما ان عاجلا أو أجلا • ولكن كيف يتأتى للفنان الشريف الصادق أن يكبح جماح اندفاع الجياع نحو سوق حافلة بالأوهام تحرسها المخاطر الماحقة؟!

هذا وجه آخر من وجوه محنة نجيب سرور • وانها فى الواقع محنة ذات وجوه كثيرة ، البحث فى أسبابها بحث فى تاريخنا المعاصر وفى أسباب الانتكاسة والأعطاب التى طرأت على شخصيتنا القومية فى السنوات الأخيرة •

وهذه الفصول المقبلة هى رؤية لمحنة هذا الشاعر الكبير • وهى رؤية تحليلية تضع فنه فى مواجهة شخصيته وفنه وشخصيته فى مواجهة هذا المجتمع الغريب الطارىء على التاريخ المصرى العربى فى انعطافة حادة من الزمن

وهى رؤية قامت على علاقة وثيقة بين كاتب هذه السطور وشخصية نجيب سرور وفنه على مدى سنوات عمره الفنى • علاقة يحكمها الحب والتقدير والاشفاق ، وتوحدها المحنة •

فان كانت هذه الفصول قد نجحت فى تقديم الجوهر الأصيل لفن نجيب سرور ، ولاتساق فنه مع شخصيته ، واتساق شخصيته مع سـلوكه ، وتنـاقض كل ذلك مع المجتمع ٠٠ فان هذا النجاح يرجع فى الواقع لذلك الاشعاع القوى الواضح الذى تركه نجيب سرور فينا جميعا ٠ وان خانتنى التوفيق فان السبب يرجع لى ، اذ أنى فى النهاية مكبل بعشرات القيود الرقابية والاجتماعية الموروثة ، ثم أننى أعيش نفس المحنة التى ملأت هذا الشاعر بالديناميت الرافض الذى فجره وبدده ٠٠ وأباد بذلك جانبا كبيرا من عناصر المحنة فينا ٠

الفصـــل الأول

دون كيشوت لم ينهـــزم

وان بقيت طواحين الهواء ٠٠ !

ليس من السهل الكتابة عن الشاعر الفنان « نجيب سرور » فهو شخصية شديدة الثراء بقدر ماهى شـــديدة التعقيد ، وشخصيته تعكس أدبه بجميع وجوهه المتنوعـة الخصبة وأدبه يعكس شخصيته بجميع وجوهها المتنوعة على نفس الدرجة من الخصوبة ٠٠

نجيب سرور شاعر فحل كبير ٠٠ مافى ذلك شك ٠

ونجيب سرور مخرج مسرحى كبير ٠٠ مافى ذلك شـك ٠

ونجيب سرور ممثل متين البنيان كبير ٠٠ مافى ذلك شـك ٠

وفى فنه استطاع ان يصهر كل هذه الشخصيات فى بوتقة واحدة متعددة الألوان ، حيث استفاد الشاعر فيه من امكانيات الممثل الموهوب القادر باحساسه المرهف على

تقمص الأدوار والتعبير ليس فقط بلغاتها الخاصة بـــل بلهجاتها وأحاسيسها ومشاعرها الدية ، ولهذا فان شعره متعدد الأصوات حتى فى القصيدة الواحدة حيث تجد معظم قصائده الشعرية معزوفة ينشدها أكثر من صوت،كل صوت له مذاقه الخاص ونبرته الصوتية الخاصة التى تحمل كثافة ايقاع مشاعره الخاصة ، بل وان الصوت ليتكرر فى قصائده حتى من داخل الصوت الواحد ، اذ تدخل فى السياق العام للقصيدة جمل حوارية أو تعبيرية تجىء بمثابة اللقطة الخاطفة ينطقها الصوت المنشد بلهجة أهلها مثلما يفعل الممثل اذ يحكى عن الآخرين ·

وان الشاعر « نجيب سرور » يثبت فى هذه الناحية رهافة حس وشفافية تنمان عن موهبة أصلية ·

ثم استفاد الشاعر من امكانيات المخرج المسرحى ، مثلما استفاد المخرج المسرحى فيه من امكانيات الشاعر فنتج عن هذا المزج ذلك المؤلف المسرحى المبدع ، الذى أسهم فى بناء مسرحنا الشعرى المعاصـــر بمجموعة من المسرحيات الشعرية والنثرية والغنائية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مسرحنا ، ان امكانيات المخرج المسرحى الذى درس فن الاخراج فى معهد عال وفى بعثة خارج البلاد ، والذى درس بناء المسرح فنـــا وامكانية دراسة اكاديمية معملية عميقة ، اتاحت له استخداما جيدا لمواهب الشاعر الذى فيه ، فجاءت مسرحياته متصـــلة اتصـــالا وثيقا بالكلاسيكيات العالمية توشك أن تناددها ، فالى جانب البناء

الفنى المتين لمسرحياته على أسس صحيحة راسخة نرى أن « نجيب سرور » كان من الشعراء العرب القلائل الذين لم يخدموا الشعر على حساب المسرح أو يخدموا المسرح على حساب الشعر ، لقد امتلك « نجيب سرور » القدرة على التوازن ، بحيث يقدم مسرحا شعريا بمعنى الكلمة ، الحوار فيه درامي محض وان كان شعرا غاية الشعر ، والشعر فيه متقدم الى أعلى مستوياته وارفعها وان كان نطقا عاميا ترسله شخصية من عامة الناس الكادحين ، ولذا فان « نجيب سرور » يعتبر أيضا من القلائل الذين لا يعترفون بما سماه المثقفون بأزمة التعبير بين الفصحى والعامية ، فانك فى مسرحه لاتجد ثمة فرقا بين اللهجتين لفرط الصدق فى التعبير ، ولأن لغته درامية سهلة مليئة بسيولة المشاعر الحارة الطازجة فان اللسان ينطق التعابير الفصحى وان كانت بألفاظ عصور الجاهلية بنفس السهولة والوضوح اللذين ينطق بهما التعابير المغرقة فى العامية ٠

وأنه لمن الصعب علينا ان نسلخ أحد الوجوه عن بقيتها لنزعم أنه الممثل الحقيقى لشخصية نجيب سرور ، فثمة بعض الآراء تزعم ان وجه الشاعر هو الوجه الأصيل لشخصية نجيب سرور ، اذ أن الشاعر فيه هو الأقوى والأبقى ، فهو الذى تجلى وتألق فى كل هذه النصوص المطبوعة الباقية ، والواقع أن فى هذا ظلما كبيرا لنجيب سرور ، فأبدا لم يكن مجرد شاعر فحسب رغم احترامنا الشديد لدواوينه (التراجيديا الانسانية)

و (لـــزوم مايلــزم) و (بروتوكولات حكمـــاء ريش) و (الرباعيات) وغيرها ، كذلك لا نســـتطيع ان نعتبره مجرد كاتب مسرحى مع احترامنا الشديد لنصـــوصه المسرحية التى نعتبرها رافـدا هـــاما وخطيرا فى أرض المسرح العربى المعاصر : (ياسين وبهية) و (آه ياليل ياقمر) و(يابهية وخبرينـــى) و(منين أجيب نـــاس) و (قولوا لعين الشمس) وغيرها ، كذلك لا يحقق لنـــا اعتباره مجرد مخرج مسرحى مع احترامنا الشـــديد لـــ (بستان الكرز) و (وابور الطحين) وغيرهما ٠٠ أو مجرد ممثل لقدرته الفائقة التى تجلت فى آدائه لدوره «أجاممنون» الـــذى أداه على مســـرح الجيب وغيـره من الأدوار فى أعمـــال تليفـــزيونية واذاعيـــة ٠٠ هذا عـــدا كتاباته النقديـــة والنظريـــة التى عبر فيها عن نفسه وعن آرائه وفضائله الفنية بشكل مباشر وضمنها كتابه « حوار فى المسرح » الذى يقع فى حوالى ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط ٠

انما يحق لنا ان نعتبر « نجيب سرور » عبقرية فذة اغتالتها ظروف نفسية غامضـــة نتيجة أوضاع وظروف اجتماعية واضحة ، فأسكتتها على غير أوان ، وهى التى لو قدر لها أن تحيا فى ظل أوضاع ملائمة وظروف نفسية واجتماعية طبيعية لباتت مناطحة للعبقريات العالمية الفذة . ولكن مهما يكن من أمر فسوف يظل « نجيب سرور » فرعا أصيلا قويا ضاربا بجذوره فى أعماق التجربة المصـرية

العربية ، يظل فى الشعر الحديث رائدا ومساهما برفقة عبد الصبور وحجازى والسياب والبياتى والشرقاوى ، وفى مسرحنا رائدا ومساهما برفقة نعمان وادريس والفريد ورومان ودياب ووهبة وعبد الصبور والشرقاوى ، وفى الاخراج رائدا ومساهما فى تشكيل النهضة المسرحية العربية المعاصرة كمخرج مستنير عميق الثقافة برفقة سعد أردش ومطاوع وجلال الشرقاوى وكمال يس والألفى وغيث رغم أنه أخرج عددا محدودا من المسرحيات ·· وحتى فى التمثيل يعتبر ـ بدور اجاممنون فقط ـ أحد ممثلى مسرحنا العتاة ، وقد كان شكل « نجيب سرور » بوسامته وأصالة ملامحه المصرية الطيبة بالاضافة الى مافيه من موهبة ووعى ودراسة ، يرشحه لأن يكون فتى سينمائيا أول يرتفع به مستوى تمثيل هذا الدور فى الأفلام ، لولا أن الظروف والأوضاع كانت بالنسبة له غير طبيعية ، الأمر الذى مزقه من الداخل شر ممزق ·

ولقد كان الاحساس الغالب على شخصية « نجيب سرور » فى سنواته الأخيرة خلال تفاقم الأزمة النفسية الطاحنة التى أودت به ، هو احساسه بأنه مطعون فى فنه ، فى مشاعره ، فى مستقبل أولاده ، فى رزقه ، وأن كبرياءه مستهدف من قوى كونية غامضة مجهولة ذلك أن الجميع فيما يبدو ـ مسئولين وغير مسئولين ، أصدقاء أو غير أصدقاء ـ كانوا من المحبين لشخصه المقدرين لفنه ، ومع ذلك فان أموره فى تعثر مستمر ، وليس من عمل يتم ، وليس

من مواقف تعكس التقدير أو الاعتراف بالحقوق · لقد كان يحس أنه يعطى أكثر مما يأخذ ، بل لعله لم يكن يأخذ شيئا ، في حين يرى زملاء صباه ورحلته يرفلون فى النعيم من حوله مع أن مواهبهم وكفاءاتهم تقل كثيرا عن مواهبـــه وكفاءاته ، فهو مؤهل تأهيلا تاما لأن يفيد فى مواقع كثيرة وحقول متعددة ، فى حقل الشعر كزملائه الرواد ، وفى حقل التأليف كرفاقه الرواد ، وفى حقل الاخراج كابـن مسرح صرف ، وفى حقل التمثيل كابن بيئة شعبية تثقف احساسه وازداد وعيا وشفافية . بل انه كان ــ وهذا جانب غير مطروق فى شخصية نجيب سرور ــ مؤهلا لأن يفيد بصورة فائقة وعظيمة فى حقل التدريس فى المعهد كأستاذ اكاديمى ذى امكانيات خاصة ، فنجيب كان من القلائل الذين يعشقهم تلاميذهم ، سرعان ما يلتف حوله الطلاب فينجذبون باشعاعاته الفنية والثقافية ، وسرعان مايصبحوا أصدقاءه لفرط بساطته ورقة حاشيته ، وسرعان ما يتأدبون عند الاستماع اليه مشغوفين بمحاضراته التى ستبلغهم كل معلومة فيها واضحة سهلة ، حيث لا يســـوق المعلومة كمعلومة بل كذرى متعددة لتصاعد الحوار الذى يجريه بينه وبين تلاميذه ، فقد كان المرحوم مغرما بالحـوار ، لا بأس فهو ابن مسرح ، لانقول المناقشة والا كان على تلاميذه ان يكونوا اندادا له بل الحوار الفنى الذى يصب فى مجرى موضوعى ويتضمن معلومات علمية مضافا اليها حقائق مستخلصة من قدراته على التأمل والتحليل ، وهو

في حواره قادر على أن يجعل منك طرفا مساويا له فى الأهمية بصرف النظر عن مدى استعدادك لمحاورته ، ثق انه دون أن تشعر ، أو ربما دون أن يشعر هو ، سيعطيك زادا تحاوره به ٠

لست بنفسى كيف كان يستحوذ على طلابه فى معهد الفنون المسرحية ، ولمست لكذلك كيف ان تجربته فى التدريس وان كانت قصيرة الأمد الا انها تركت آثارا عميقة جدا في الطلاب «علمت» فى نفوسهم ٠ هذا مع أنك لو نظرت فيه فى سنواته الأخيرة لاستحال عليك ان تصدق ان مثله يمكن أن يحتفظ باحترام الطلاب ، ذلك أنه أهمل مظهره اهمالا متعمدا الى حد المسخ ، كما تعمد نفى كافــــة الطقـــوس والعادات والتقاليد التى يتشبث بها كل أفندى يريد أن يبدو محترما ، ومن ناحية أخرى حفل قاموسه الشخصى الذى يستخدمه فى الحياة اليومية فى تعامله مع كافة النـــاس بألفاظ مفرطة فى السوقية مليئة بالسخرية المريرة الحادة ، لايتورع عن استخدام أى لفظ مهما كان جارحا لا يمنعه خجل أو حياء ، يشتمك بأقبح الالفاظ وأشنع الصور ، غير أنك لا تلبث ان تضحك باستمتاع مشاركا له فى السخرية منك ، لادراكك أنه يستخدم قلة الحياء فى تجريح ذلك الحياء المصطنع الذى نتشبث به لنخفى ما بداخلنا من سوءات وتشوهات لاحياء فيها على الاطلاق كأنما كان يهدف الى تجريح هذا الحياء المزيف وتمريغه فى التراب بقســـوة شديدة ، فكانت عباراته وشتائمه وقفشاته ـ التى تخلو من

الحياء والخجل ـ تلعب حواجبها وتخرج لسانها ساخرة من سوء نوايانا ، ولسان حالها يقول : ليس الحياء ان نعمد الى اخفاء مثل هذه الالفاظ ، بل الحياء الحقيقى ـ لو كان موجودا فينا حقا ـ هو ان نفعل أشياء اخـــرى تجعلنا ناسا حقيقيين ٠٠ لقد كان رحمه الله يرى ان الحياء الحقيقى قد أنعدم ، وان التبجح هو الذى يسود ، فكيف يتمسك بحياء جزئى مظهرى فى حين ان حياتنا برمتها قد ذهبت ضحية لانعدام الحياء وانقلاب الموازين بها ! هذا أمر لم تكن تقبله طبيعية نجيب سرور فكانت تأنف منـه وتأباه حتى ولو كان ذلك على حساب مظهرها ٠

مع ذلك كانت شخصية نجيب سرور تنطوى على نبل عظيم حقا ، ولم يكن مريضا فى نفسه كما قد يبدو لضيقى الأفق ، وان لكان ثمة مرض فانه ذلك الذى تصاب به النفوس النبيلة الحساسة ، تلك النفوس التى تشعر أنها يجب ان تتحمل قدرا كبيرا من المسئولية الانسانية ، تلك النفوس التى ترى ابعد من غيرها ، وتشعر أعمق من غيرهـــا ، وتعرف أكثر من غيرها ، فهى بحكم ماترى وما تشـــعر وما تعرف تحس بأنها تبعا لذلك أشد مسئولية من غيرها ، بانها تتحمل الذنب فى كل مايصيب أولئك الذين لا يرون ولا يشعرون ولايعرفون ٠ وأصـــحاب مثل هذه النفوس النبيلة هم فى العادة يذهبون ضحايا مجتمعاتهم خاصة اذا كانت هذه المجتمعات متهرئة واقعة تحت ضـــغوط كثيرة كمجتمعاتنا العربية ٠ انهم فى محاولاتهم خدمة الانسانية

والتصدى لعوامل القهر والاستبداد والظلم ، يصطدمون بقوى عاتية جبارة لأنها قوى غير نبيلة لا يعنيها من أمر البشرية شيئا ، لا يعنيها سوى مصالحها الشخصية ويشهد التاريخ أن ذوى النفوس النبيلة كانوا ضحايا لمجتمعاتهم يموتون فى عز الشباب فلا يحققون لانفسهم شيئا البتة فان البشرية تظل تدين لهم بالكثير من عوامل تقدمها وتطورها .
ومن ذوى النفوس النبيلة من يحترق مبكرا دون أن يفعل شيئا ذا بال ، ومنهم من هو عنيد صلب لاينهزم أبدا . انهم أولئك الذين لا يسلمون بالهزيمة ، ولا يملكون القدرة على التراجع عن احلامهم أو مواقفهـــم أو مواقعهم .. والى هؤلاء ينتمى نجيب سرور .

وفضلا عن النبل المتوفر فى شخصية نجيب سرور كشاعر أصيل وفنان مستنير كبير الموهبة ، هناك جانب هام جدا فى رأينا لم يلتفت اليه أحد حتى الآن فى شخصية نجيب سرور ، وهو جانب أصيل فى تكوين هذه الشخصية الحساسة القلقة المعذبة ذات الطموحات الشاهقة ، وابدا لم تكن طموحاته خرقاء لأنه كان يمتلك القدرة على تحقيق هذه الطموحات مهما تصاعد شأنها ، بل طموحاته كانت تستمد شأوها وشموخها مما فى شخصـــه من مواهب ، وابدا لم تكن طموحاته شخصية تعود عليه بالمكسب المادى، بل ان طموحاته كانت فنية فى هدفها القريب والمباشر ، وكانت وطنية قومية فى قوامها الرئيسى ، فتحقيق منجز

فنى بالنسبة له كان يعنى فى نظره تحقيق منجز حضارى ثقافى على المستوى الوطنى والقومى ··

ذلك الجانب الأصيل الهام فى تكوين شخصية نجيب سرور هو فى رأيى تأثره العميق بشخصية « دون كيخوت » ـ أو دون لكيشوت فى نطقنا العامى ـ بل أنه لم يكن مجرد تأثير ، ولم يكن ذلك مجرد استنتاج لنا من اشعاره التى يلعب فيها دون كيشوت دورا كبيرا ويحظى بنصيب موفور منها ، بل ان نجيب سرور بنفسه يدون على غلاف مسرحيته المبكرة (ياسين وبهية) ـ ضمن المعلومات الهامة التى يقدم بها نفسه للقراء ، قوله بالحرف الواحد : مثله الاعلى دون كيخوت ·

ولو ان نجيب سرور لم يصرح بهذا الاعتراف مباشرة فان القارىء لاعماله كان سيكتشف هذه الحقيقة من تلقاء نفسه لأول وهلة ، لأن علاقة نجيب بهذه الشخصية الفنية الشهيرة تعلن عن نفسها بكل وضوح فى معظم أشعار نجيب سرور · لكن اعتراف شاعرنا بهذه العلاقة وحرصه على تدوينها يعطى مدلولا هاما ليس من حقنا أن نتجاهله ونحن نحاول فهم شخصية نجيب سرور ··

فشخصية دون كيشوت كما نعرف هى تلك الشخصية الفنيـــة التى ابتدعها خيال الروائـــى الاســـبانى الكبير « سرفانتس » وأقام حولها روايته الكبيرة العظيمة التى

تحمل نفس الاسم ، وهى من بواكير الرواية العالمية ذات النفس الطويل ومن الأعمال الكلاسيكية التى تتلمذ عليها عشرات الأجيال من الروائيين والنقاد والدارسين · ولم تشتهر فى الأدب العالمى شخصية مثلما اشتهرت شخصية « دون كيشوت » فى جميع انحـــاء العالم ، أراد بهـــا « سرفانتس » ـ كما اعترف بنفسه ـ محاكاة شخصيات الفرسان القدامى وعلى رأسهم شخصية « عنترة بن شداد » صاحب الخوارق والمعجزات البطولية الخارقة ، فاستوعبت شخصية «دون كيشوت» كل التراث الفلسفى والاسطورى والفنى والتاريخى السابق فجاءت شخصية فريدة بحق ، تجعل من الخيال واقعا ومن الواقع خيالا ، وتقنع فى كلتا الحالتين ·

ولم تشتهر شخصية « دون كيشوت » لكل هذه الشهرة عبثا ، بل انها ظلت طول عمرها رمزا خالدا على نبـــل الانسان وقدراته الذاتية الخارقة · صحيح أنها تبدو كما لو كانت خرافية ، تفعل كل خارق للعادة وتحقق كل مخالف للمنطق ، ولكن كل هذه الأحداث كانت فى اطار الثورة على سوء الأوضاع الانسانية والتصدى لها · ذلك ان « دون كيشوت » ، الفلاح الاسبانى الذى نهل بالصدفة كل هذا التراث الانسانى اتسع خياله وامتدت رحابته فاراد الى طلب الحياة كما يجب أن تكون يســـودها العدل والحب والتعاطف والتراحم ، وقد ظن ـ لفرط اتساع خياله ـ ان التصدى لعلاج الخلل فى أوضاع البشرية أمر سهل ،

فلما تصدى لها بمفرده فى الشارع لقى من الاستهزاء والبهدلة والزراية والمهانة ماكان كفيلا برده الى صوابه ، أو بمعنى أصح الى الصواب الذى يرفضه ويعتبره جنونا ، لكنه لم ييأس ، ولم يتراجع ، فالصحيح فى نظره أن العدل ينبغى ان يسود ويتحقق ، وان الانسان ينبغى ان تتاح له وسائل تحقيق طموحاته على النحو الذى تتسع له هذه الطموحات ، وفيما عدا ذلك هو اللامنطق واللاعقل واللاصحيح ، ليكن هو المجنون والمجتمع هو العاقل ، ولكنه مقتنع أن جنونه هو العقل فى أتم صحته وان عقل المجتمع هو المجنون فى أقوى تسيده واستبداده وهكذا راح يتعلم من كبوائه دروسا يصححها فى عودته من جديد مستأنفا رحلته نحو تحقيق العدالة بمفرده ، لاتزيده الصعاب الا تصميما ولا تتحطم أحلامه على صخور الواقع أبدا حتى ولو أدى به الأمر الى محاربة طواحين الهواء نفسها فيما لو ثبت أنها تتحمل بعض المسئولية فى تعاسة الانسان ، وصحيح ان « دون كيشوت » ـ عمليا ـ قد تحطمت كل احلامه على صخور الواقع ، وانتهى جهاده دون أن يحول من مجرى الواقع شيئا ‥ ولكن يبقى من « دون كيشوت » نبل الانسان وعظمة الانسان ، وقدراته الذاتية الخارقة التى تفرض عليه ان يتصدى لكل عدوان على انسانيته ، تظل شخصية « دون كيشوت » توقظ فى الانسان قواه الخفية الخارقة ، وتنعش أحلامه وطموحاته ‥

ترى هل يحق لنا الزعم بأن شخصية « نجيب سرور » كانت تعكس جانبا كبيرا من هذه الشخصية الفنية التى اعتبرها مثله الأعلى ؟ • الرأى عندى أن نعم . لقد تمتعت شخصية نجيب سرور بمقومات دونكشوتية واضحة وقوية ، لقد كان فى سنواته الأخيرة يعكس هذه المقومات بكـــل وضوح • كان قد صــمم على التصــدى لكل المثبطات والمعوقات ، فلم يكف طوال عذاباته النفسية والمرضية عن كتابة الشعر والمسرح • وكان فى ذروة الملــل والســأم والشعور المفاجىء باللاجدوى يفقد توازنه النفسى فينزل الى الشارع حافيا مترهلا يفعل من الافعـــال ويقول من الأقوال مايذكرنا بمثله الأعلى « دون كيشوت » ، ولسان حاله يقول اذا كان الشعر والمسرح والفن لم يكن له أى جدوى فلعل مواجهة المجتمع مباشرة وجها لوجه تكون فيها بعض الجدوى ، وهذه احلام دونكيشوتية ولكنها تعكس مأساة نبل الانسان فى نجيب سرور •

على أن ثمة شرخا أصاب شخصية نجيب سرور منذ وقت مبكر أدى الى امكانية فقدان التوازن النفسى ذلك الذى وصل الى ذراه المؤسفة فى سنواته الأخيرة فجعله يفرط فى الشراب كأنما ليخمد عقله الصاحى على الدوام عله يستريح منه ومن عذاباته ، ذلك الشرخ هو شعوره المبكر بالاضطهاد • فمأساة نجيب سرور أنه عـــاد من المنفى الخارجى ليحكم عليه بالمنفى الداخلى ، ففى اثناء بعثته التعيسة حدثت مواقف قدرية خرقاء ليست عندى تفاصيلها

بالضبط أدت الى وضع اسم نجيب ســـرور فى القائمـــة السوداء فحكم عليه أن يبقى طويلا فى الغربة يطلب العودة الى موطنه ، وكان قد تزوج من أجنبية وأنجب منها ولابد أن يتعرف ولده على جنسيته وجنسية أبيه التى سيحملها فى قابل الايام ٠ وقد عانى من عذابات الغربة ما عانى ، فلما انتفت اسباب نفيه وعاد الى موطنه فوجـــىء بـأن الأوضاع السياسية تحكم عليه ان يظل ممزق العواطف والنفس بأسباب بيروقراطية سخيفة ، حيث يبقى أولاده بعيدا عنه ، ثم اذا بالصدامات مع الواقع تتوالى عليه مستهدفة تحطيم رأسه ٠٠ فقاده كل ذلك الى الامعان فى تعذيب نفسه والانتقام منها ، ولكأنما قد أدرك أنه محكوم عليه بالنفى ، لكنه استطاع ان ينفى النفى وان يقاومـــه بالتجذر فى التربة المصرية العربية ، فيصبح أحد أعلامها ، وأحد الأشجار المورقة فى ثقافتها المعاصرة ، وهذا كله ، انما يعكس فى نفس نجيب سرور ٠٠ نبل الانسان ٠

الفصل الثانى

لزوم مايلزم لدون كيشوت فى جحيم المنفى

القراءة الأولية لنجيب سرور ، خاصة شعره المباشر ، تدل دلالة قاطعة على أن تجربة السفر كان لها تأثيرها القوى والخطير فى شخصية نجيب سرور ، انها تجربة مريرة وقاسية بحق ، شرخته من الداخل شرخا كان كفيلا بأن يتصدع منه أى بناء مهما كان قويا .

ولسنا نعرف بالضبط ما الذى حدث فى تجربة السفر على وجه التحديد من تفاصيل واقعية ، كل مانعرفه أن « نجيب سرور » كان قد سافر الى روسيا ضمن بعثة مكونة من بعض زملائه خريجى معهد الفنون المسرحية منهم جلال الشرقاوى واحمد ابراهيم مهندس الديكور وسعد أردش وكرم مطاوع ، وان مجرى البعثة قد تحول فانتقل بعضهم الى بلدان أخرى وبقى « نجيب » فى روسيا ثم تركها الى بودابست بعد أن كان قد تزوج من سيدة روسية عظيمة

وانجب منها طفله الأول « شهدى » ، وان ظروفا دولية اقتضت ان يظل هو مقيما فى بودابست وأولاده فى روسيا ، وأنه ظل فى بودابست سنين طويلة يعانـــى من الاغتراب الحقيقى وممنوعا من العودة الى بلاده أو الى أولاده فى روسيا · وكانت أخباره تصل الى القاهرة ، فكتب « رجاء النقاش » مقالا فى أوائل الستينات بعنوان « مأساة فنان مصرى فى بودابست » ناشد فيه السلطات المصرية بالسماح لهذا الفنان بالعودة الى بلاده بعد أن اثبت انه غير مدان فى شىء ·

وهكذا عاد « نجيب سرور » فى حوالى عـام ١٩٦٤ ليبدأ ممارسة نشاطه الفنى بشكل طبيعى مثله مثل زملائه ، فترجم واخرج لمسرح الجيب مسرحية « بستان الكرز » لتشيكوف ، ثم قدم له كرم مطاوع مسرحيته الشـــعرية الأولى « ياسين وبهية » وقدم له جلال الشرقاوى مسرحيته الشعرية الثانية « آه ياليل ياقمر » وأخذ انتاجه بعد ذلك يتوالى ، الى ان أصيب بالاحباط فجأة ، وبدأ يفقد توازنه شيئا فشيئا حتى وصل الى الصورة المؤسفة التى نعرفها كلنا والتى كانت نوعا من الانتحار البطىء وتدمير الذات بقسوة عجيبة كأنما لسان حاله يقول للقـوى الكونيـــة المجهولة التى تضطهده : سوفـأريحك وأقوم أنا بتدمير هذا الكيان الذى تشغلون أنفسكم به ! وهذا ماقد حدث بالفعل ·

ولقد حاول الكثيرون من المخلصين المحبين لنجيب سرور البحث فى أسباب وصوله الى تلك الحالة المرضية المستعصية التى أدت الى تدمير نفسه ، وأرجعوها الى ظروف الواقع المصرى، وعدم ملاءمتها لاستيعاب هذا النوع من الفنانين أصحاب الكلمة والرأى • ولسنا نعفى ظروف الواقع المصرى من المسئولية ، ولكن الرأى عندى أن «نجيب سرور» كان قد عاد من الرحلة مدمرا جاهزا ، مستعدا للتجاوب مع أى احباط ، فكان طبيعيا ان يحدث له ماحدث •

ولو حاولنا ان تستقرىء تفاصيل أزمة « نجيب سرور » فى رحلة اغترابه فلسوف نجد بعضها فى ديوانه « لزوم مايلزم » الذى كتبه فى بودابست من سبتمبر سنة ١٩٦٣ حتى ابريل ١٩٦٤ أى قبل عودته الى القاهرة بشهور قليلة •

فى « لزوم مايلزم » نلتقى بتفاصيل الازمة كأوضح وأنصع ماتكون • ولكن قبل أن نخوض فيها نحب أن نتكلم قليلا عن شعر نجيب سرور الذى كتبه قبل مسرحياته الشعرية ففيه الجوهر الحقيقى لشخصية نجيب سرور ، هو شعر غنائى خالص التصق فيه نجيب بذاته التصاقا تاما ، وعبرته عن كل مايعتمل داخل نفسه من مشاعر وثورية مبكرة • فالديوان الأول لنجيب سرور هو « التراجيديا الانسانية » ، جمع فيه كل قصائده التى نشرها فى أوائل وأواخر الخمسينات ضمن الزهور الشعرية الجديدة التى تبنتها مجلة الآداب البيروتية تكريسا

وتدعيما لحركة الشعر الجديد · وكان نجيب يكتب أيضا بعض المقالات التى يناصر فيها حركة الشعر الجديد · وفى ديوان « التراجيديا الانسانية » نلمس بوضوح ميول نجيب سرور الدرامية ، ليس اعتمـــادا على عنوان التراجيديا الانسانية فحسب بل اعتمادا على قصائد الديوان كلها التى نلمس فيها حسا دراميــا يقظا ، يتمثـــل فى احســـاسه بالصراعات الطبقية الحادة فى بلاده منذ طفولته ، وفى داخل هذه الصراعات احساس بدراما الحياة ومأسـاة اصطدام الخير بالشر ، وضيعة ذوى النفوس الطيبة النبيلة فى طريق الآمال المبتورة والأحلام المحبطة · ويحس القارىء لأول وهلة ان الشاعر فى هذا الديوان منحاز لقضية ، وقضيته واضحة تماما ، انها قضـــية الفقراء والعمال الكـــادحين فى مواجهة الباشـــوات والاقطـاع المتجبر المتنمر · ولأن الشاعر يملك قدرا كبيرا من سذاجة الشاعر المطبوع التى تفرض عليه الاهتمام بالصورة الانســـانية المعبرة عن نفسها من تلقاء تكوينها الطبيعى ، فان احساسه بقضيته لم يفقده هذه السذاجة الجميلة المعبرة ، ولم يجنح به نحو تجسيد القضية فى صور انسانية كما يفعل دائما أصحاب القضايا من الشعراء الذين تجىء الفكرة عندهم فوق الصورة ··

ومن الواضح ان التأثير الشعبى فى « نجيب سرور » أوضح من التأثير الثقافى المســـتقى من الكتب ، فالمأثور الشعبى عنده هو الأقوى ، ليس مهما أن تكون لغته فصحى

أو عامية فان فصحاه مشبعة بنكهة المأثور الشعبى وألفاظه مستقاة من اجواء الحقول والقرى والحوارى ، هى حصيلة خبرات العجائز من جداتنا يحكين لنا الحواديت ، هـى حصيلة صانعى الأمثال نتداولها حتى اليوم ، حصـيلة المعذبين من أهل الهوى والمكوويين من سياط الدهر تنضح بعذاباتهم مواويلنا وأغنياتنا ، حتى خيال « نجيب سرور » هو الآخر مزيج من الحضر والريف والبادية والصحراء ، لكن موطن خياله الحميم الذى ينطلق منه ليعود اليه هو الريف المصرى ، حيث يقبع عش خياله الخصيب فى قريته « أخطاب » على وجه التحديد والتى كانت من معـاقل الاقطاع · هذا الخيال قد صنع فى « نجيب سرور » طبيعة فريدة تغذى عواطفه نحو مثل عليا وقيم اخلاقية عظيمة ، مزيج هى من فروسية العرب فى الشعر والأخلاق والميدان ، ومن اخلاقيات الحضارة المصرية الراسخة منذ القدم وهى الأخرى نوع من فروسية فرض السـلام والعمران فى الأرض ··

شاعر هذه طبيعته وهذا تكوينه قد راح يطلب المثل العليا والقيم الاخلاقية فى بلاد تتبنى هذه القيم وتبشر بها العالم لصالح الانسان من أجل تحريره وتحرير طاقاته المكبوتة واطلاق قدراتها على الابداع من أجل رخاء يعـم الأرض وسلام يرفرف عليها · ولكن أى بلاد فى الدنيا مهما كبر عزها فهى لاتصلح بديلا للوطن · خاصة لصاحب مثل هذا المزاج المصرى العربى الأصيل ، لقد فوجىء بأنه حائر

ممزق العواطف بين زوجته وابن يعيشان فى بلد ، وهو فى بلد ، أى أنه منفى منفى مزدوجا ، هو وابنه ٠

ولابد أن علاقته الثقافية بدون كيخوت ـ كشخصية فنية ـ قد تحولت الى علاقة وجدانية تأصلت فيه ، لقد تلبسته شخصية دون كيخوت لأن تجربتهما معا واحدة ، كلاهما ينشد العدالة ويصطدم بالمستحيل ٠ وشاعرنا قدر تأثره بشخصية دون كيخوت ، تأثر أيضا بفن أبى العلاء المعرى تأثرا كبيرا منذ الصغر ، ولقد عاش وجدانه الفنى تجربة شيخه العظيم أبى العلاء وارتحل فى شعره ونثره وجاس فى رسالة الغفران التى دبجهايراع أبى العلاء ، هى رسالة مشهورة بالطبع وضع فيها أبو العلاء تصورا فنيا لجهنم التى كان قد منى بها لاتهامه بالزندقة ، وتصور نفسه يجوس فيها ويلتقى بصنوف من البشر الاعلام ٠ رسالة الغفران تفضى بنجيب سرور الى جحيم دانتى الليجرى أحد شوامخ الأدب الايطالى الذى وضع هو الآخر تصورا للجحيم أو جهنم الحمراء كما يطلق عليها خيالنا الشعبى ٠

مابين جحيم دانتى وغفران أبى العلاء انصهر وجدان الشاعر « نجيب سرور » لكن طبيعة دون كيخوت التى تلبسته فى الغربة صلبت عوده ومكنته من النظر بصفاء فى تجربة اغترابه فى منفاه ، فوجد ان له جحيمه الخاص الذى منى به ولم يجد منه فكاكا ، انه جحيم شخصية مثله الأعلى « دون كيخوت » التى لم يعد هناك فرق بينها وبين

نجيب سرور فى كل اشعار الديوان ومواقفه حيث تختلط معالم الشخصيتين ببعضها وتصبح حبيبة « دون كيخوت » هى نفسها حبيبة « نجيب سرور » بل يصبح « دون كيخوت » نفسه من قرية « اخطاب » احدى قرى مصر التى هى مسقط رأس شاعرنا ·

ولأن الشاعر فى جحيمه جحيم المنفى يسلك درب استاذه الشيخ أبى العلاء فلا بأس لديه من استخدام ادواته ولافتاته ورموزه ليضىء بها رؤاه الخاصة · لقد كتب « ابو العلاء المعرى » ديوانه الأكبر بعنوان « لزوم مالايلزم» ومعناه الفنى أن ابا العلاء فى اشعاره هذه يفرض على نفسه قيودا فنية اضافية على النظم وعلى المعنى ، قد يعتبرها المحترفون انواعا من الحلية والزخرفة ولكنها عند ابى العلاء فوق ذلك تعميقا للمعنى واثراء الصورة واستثمارا جيدا للكفاءة ، بل انها كانت من الكفاءة حتى انها تحولت من أشياء غير لازمة ــ بمعنى ان المعنى بدونها قد اكتمل ــ الى أشياء لازمة بل ولا يمكن التفريط فيها ، ومن هنا فقد اشتهر ديوان المعرى باسم اللزوميات ··

أما « نجيب سرور » فانه يسمى ديوانه « لزوم مايلزم » ومعناه أنك يجب أن تتقبل هذا الديوان الموضوع على نحو غير مألوف بالنسبة لدواوين الشعر العربية ، فقد درجت العادة على أن يضم الديوان مجموعة من القصائد المتفرقة فى أغراض شتى تجمعها هموم فكرية واحدة · اما هذا

الديوان فله شكل فنى ، له اطار ، واطاره الفنى هو الجحيم كفكرة فنية ابتكرها استاذه الشيخ وارتادها استاذه الآخر دانتى ، غير ان الجحيم هنا هو المنفى ، والذى يتقلب بين نيرانه هو دون كيخوت المعاصر الذى حلـــت روحــه فى شخصية نجيب سرور ، اذن فان للشاعر عذره الفنى فى ان يستخدم هذه الادوات وهذه الاطر من هذه الصيغ التى استعارها من تراثه ومن ثقافات أخرى دخلت فى تكوينه الفنى .. انها لزوم مايلزم للشاعر للتعبير جيدا عن جحيمه الفنى الخاص :

قد آن يا كيخوت للقلب الجريح .. أن يستريح

فاحفرها هنا قبرا ونم

وانقش على الصخر الأصم :

يانابشا قبرى حنانك .. هاهنا قلب ينام

لا فرق من عام ينام والف عام

هذى العظام حصاد ايامى فرفقا بالعظام

انا لست احسب بين فرسان الزمان

ان عد فرسان الزمان

لكن قلبى كان دوما قلب فارس

كره المنافق والجبان

مقدار ماعشق الحقيقة

قولو « لدولين » الجميلة ··

« اخطاب » ·· قريتى الحبيبة :

هو لم يمت بطلا ولكن مات كالفرسان بحثا عن بطولة

لم يلق في طول الطريق سوى اللصوص

حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص ··

فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص :

بهذا المفتتح الأسيان ، الذى يعكس الما وحزنا عميقين يبدأ الشاعر نجيب سرور أول فقرة فى ديوانـــه « لزوم مايلزم » ، وهو فى نفس الوقت مفتتح الجحيم ، الذى يقف الشاعر على بابه ، أنه يقدم لنا شخصيته التى هى مزيج منه ومن كيخوت ، فدولسين هى الحبيبة الوهمية لدون كيخوت ، واخطاب هى مسقط رأس الشاعر وقضيته هى نفس قضية دون كيخوت يموت فيها كالفرسان بحثا عن بطولة ·

ثم يبدأ الشاعر رحلته فى الجحيم ـ جحيم المنفى ، التى هى فى نفس الوقت رحلة اغترابه مع الكلمة بحثا عن المعنى العظيم للبطولة الانسانية ، كما انها رحلته على المستوى الحياتى الشخصى الخاص به كذات تدعى نجيب

سرور · فهو يحكى لسيداته واميراته الحسان عن قريتـه وعن أهله وموطنه وطفولته وصباه ومن يحاورنه كمــا الالهات فى الأساطير الاغريقية بحثا عن هويته فيحكى لهن المزيد والمزيد من زاد طفولتــه وقريته وأحلامه العذرية القديمة بل وخطاياه وما اكتنف حياة أهله من صراعات ومعاناة وقهر عريق وانعكاس كل ذلك عليه وعلى مواقفه وسلوكياته ·

ياسيداتى ·· يا أميراتى الحسان ·· !
صليت فى الماخور كى أعرف أسرار الطهارة
وزنيت فى المحراب كى أسبر أغوار الدعارة
لكن شيئا واحدا لم اقترفه ·· هو اللواطة :
ياسيداتى معذرة ··
ان كنت قد جانبت آداب اللياقة
أنا لست أعنى فتنة الغلمان ·· ما كان « ابن هانى »
فى الحق لوطيا ·· ولكن اللواطة أن تقول ··
مالا تريد
أو أن تريد ولا تقول :
الخوف قواد ·· فحاذر أن تخاف :

قل ماتريد لمن تريد كما تريد متى تريد ..

لو بعدها الطوفان قلها فى الوجود بلا وجل :

« الملك عريان » .. ومن يفتى بما ليس الحقيقة ..

فليلقنى خلف الجبل :

انى هنالك منتظر ..

والعار للعميان قلبا أو بصر

والى الجحيم بكل الوان الخطر :

وجحيم المنفى الذى يعيشه دون كيخوت الحالى فى شخصية وتجربة نجيب سرور يضم افذاذا وعباقرة عظاما ممن خدموا البشرية أجل الخدمات ، هم الآخرون ـ بسبب عبقريتهم ونبوغهم ومالهم من آراء حرة نافذة ـ عاشوا جحيما كجحيم شاعرنا بل ان بعضهم لقى حتفه ، هؤلاء هم اذن رفقاء للشاعر فى رحلته فى محنته فى جحيمه ، لهم حضورهم القوى من خلال أفكارهم وآرائهم ومواقفهم المترسبة فى وجدان الشاعر ، ولهم أيضـــا جـــانب كبير يتحملونه من مسئولية هذه المحنة التى يعيشها الشاعر ففى عروقه بعض دمائهم وفى سلوكه شعاع من مواقفهم وآرائهم واخيلتهم ..

هناك أيضا سوق السياسة الذى عاشه الشاعر مرغما، أو قدر له مشاهدته هو جزء من جحيمه ، حيث فرض عليه

أن يرى الكثيرين من لابسى الاقنعة ، والمهرجين والمتاجرين بمصائر شعوبهم ، كل هؤلاء أيضا هم جزء من جحيمه فى المنفى ، حيث تكويك وأنت البرىء نيران المعذبين بذنوبهم ·

يحكى الشاعر لسيداته وأميراته الحسان – اللاتى لعلهن عرائس القوافى – رحلته فى جحيم المنفى التى بدأت منذ طفولته حتى مراحل تعليمه :

ياسيداتى ·· ياأميراتى الحسان ··

ودرست فى الكلية القانون ·· قانونا لغابة

يتلى علينا من عصابه !

يا ألف نص ·· كل نص الف بند

فى كل بند ألف حرف

فى كل حرف ناب أفعى ··· الخ المقطع

ثم يحكى عن مرحلة أخرى من حياته فيقول :

وشغفت بالتمثيل ·· لم أعشق من الأدوار الا دور هملت :

العصر موبوء وسوء الحظ هو راشيو اناط البرء بى !
ياسيداتى ·· كنت فلاح الملامح لاتلائم سحنتى دور « الامير »

لكن تلائم دور « حفار القبور »

كم كنت أكره ذلك الدور اللعين

اخشاه ·· أهرب منه ··

« فاعفونى ·· فما أقوى على نبش القبور ، وعلى التلاعب بالجماجم ! »

فأفوز من بعد الضراعة « بالشبح ! » ·· الخ ··

والشاعر يستخدم هذه اللقطة من حياته ليومىء بها الى بعد اكثر عمقا ، يشمل الحياة كلها باعتبارها مسرحا كبيرا · ثم أنه ينتقل الى مرحلـــة هوايته للرسم ولكتابة القصص ثم الأشعار ، ثم يستعرض رحلته مع الشـــعر ومعاناته وحيرته فى البحث عن مفهوم حقيقى للشعر فى مواجهة المزورين للقضايا وللمفاهيم ، وذلك من خلال لقاء له مع ابى العلاء فى جحيمه · يلتقى كذلك بالمسيح فى عشائه الأخير فيعرض من جحيمه الخاص عشـــرات من يهوذا ، فقضية المسيح لاتزال باقية فى الواقع المعاصر · وفى لقاء له بدانتى يطلعه على ان أمير الشعراء حقا ــ ان كان ولابد ان تصبح للشعر امارة فى بلاد شاعرنا ــ هو ذلك الشاعر المصرى الشعبى المجهول الذى قال :

وده قبر مين اللى ماحد يروح له ؟ ··

قبر الغريب اللى ماجوله أهله ·

وده قبر مين اللى البقر داسه ؟ ··

قبر الغريب اللى هجر ناسه ·

وده قبر مين اللى البقر هده ؟ ··

قبر الغريب اللى هجر أرضه

ويكون تجواله فى الجحيم مع شيخه دانتى الليجيرى قد وصلت الى تاسع الادوار :

·· فانعقدت على الوجه الوضىء

سحب من الحزن العميق ·

ومن المرارة والغضب ·

ـ هذا مقر « الخائنين

ـ كم كنت تكرههم ··

ـ كما تكره لصا يسرق القرية فى ليل الحريق !

وفى هذا الحوار مع دانتى يستعرض الشاعر تفاصيل غربته المريرة ، تفاصيل جحيمه الحقيقى · وهى تفاصيل مشابهة لتجربة دانتى فى غربته هو الآخر ، اذ يقـول لدانتى وهما يدوسان فوق رؤوس الخائنين :

ـ انى لأعجب ·· كيف للقلب السماوى الرهيف

ان يعرف الكره العنيف !

فيرد عليه دانتى قائلا :

ـ بل ليس يعرف كيف يعشق

من ليس يعرف كيف يكره ·

ولقد عرفت الكره فى المنفى ·· وذقت مرارة الخبز الغريب

وضربت فى الآفاق من غير اتجاه

كسفينة حيرى بغير دفة ··

وبلا شراع ··

ثم يعود دانتى فيقول للشاعر :

ـ كم لاعنى المنفى ، كما لو كان مصـهور الحديد يصب فى جوفى ··

اتدرى ما الجحيم ؟!

ـ هانحن فيه من الصباح !

ـ لا ·· ليس هذا ·· فالجحيم

هو ان تعيش بلا وطن

وتموت فى المنفى ، وتدفن فى تراب الآخرين !

وهكذا يكون دانتى قد عمق شعور الشاعر بمأسـاته الحقيقة ، اذ عكس فى قولـه هذا لب المأسـاة ونـار

الجحيم ‥ وهذا مايجعل الشاعر يعلق فى مقطع محايد على لسان دون كيخوت :

ستظل مثل حصانك المهزول تعرج ، كل شىء أعرج .
حتى الأمانى فى الأفق .
حتى الرؤى شاهت كما فى رأس معتوه، كما أضغاث حلم
كيخوت أنت الوهم أم كل الذى تلقاه وهم ؟!
ماغاية الدوران يا « دولسين » يامعبودتى غير الدوار أو الخيار
بين الجنون والانتحار !
هاتى حصانك ياسنين ‥
ماذا لديك سوى الضجيج ؟ أمن طحين ؟!

ويتمثل شعور نجيب سرور بجحيم المنفى خير تمثيل فى لقائه بناظم حكمت الشاعر التركى الأصيل فكانت له مكانة بارزة مرموقة بين الشعراء الوطنيين الشرفاء . وبعد ان يستعرض الشاعر مع صديقه واستاذه الحميم تفاصيل محنة الشرفاء فى مواجهة اللصوص وسارقى أقوات الشعوب واحلام الأطفال بالغد ، يقول معلقا فى مقطع محايد :

تنفى من المنفى ، وتبدأ من جديد .
هذا مصيرك ياشريد

ان تطرق الأبواب من باب لباب

فتردك الأعتاب الأرذل الخراب ..

كلبا يضيع مع الكلاب ! .. الخ ..

ثم يقول فى نفس المقطع :

..والخبز ياكيخوت مر ..

خبز المنافى ، مثلما العلقم مر

لو كسرة من خبز مصر !

والماء ياكيخوت مر ..

ماء المنافى .. مثل ماء البحر لايشفى غليلا بل يزيد من الغليل

لو قطرة من نيل مصر !

وبقيـــة الديوان تعكس الكثير من محنة دون كيخوت الشاعر نجيب سرور فى جحيمه جحيم المنفى ، حتى ينتهى بنشيد العودة :

المـــرفأ المنشــــود لاح ..

افـــرغ شراعك ياغريب من الرياح ..

ملمه ، كم ود الشـــــراع لو استراح ..

لـــــو اســــــتراح

وينتهى نشيد العودة هذا نهاية آملة تنفى اليأس وتعلو عليه بدليل عودتها سالمة ٠

وهكذا فلقد طوى الشاعر نجيب سرور أو دون كيخوت شراعه وأفرغه من الرياح على شاطىء الحبيبة مصر ٠ طواه الى الابد ، وتحقق له حلم وحيد من بين أحلامه الشامخة ، حلم ان يدفن فى قبر فى أرضه فى وطنه بين أهله لن تدوسه الابقار ولن تهده ، ابدا لن تدوسه ولن تهده وسوف لن ينقطع عن جدثه سيل الزوار والمحبين ٠ ولكن هل تراه قد استراح !! ٠

الفصل الثالث

اغتراب الحلم فى المنفى الداخلى

« يا وابور الساعة الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد »

هذه الأغنية الفولكورية الصعيدية المملوءة بالشجن والبهجة المحزنة أو الحزن المبهج ، والتى استلهمتها عشرات الأصوات الغنائية بكلام جديد وتحريفات قليلة فى اللحن الأصلى دون أن تفقدها جدتها أو دون حتى أن ترقى لمستواها • أقول أن هذه الأغنية لابد كانت تدوى فى أعماق « نجيب سرور » وهو فى غربته فى جحيم المنفى ببودابست على بعد مسافة هائلة من أرض أهله حيث يقيم أبوه وأمه وأخوته وحيث تقبع كل ذكريات الطفولة والصبا ، وعلى بعد مسافة هائلة أيضا من أرض تقيم فيها زوجه وابنه الوليد الذى لم يتمتع بعد باحتضانه •

لابد أيضا أن تكون هذه الأغنية الشعبية العريقة قد هزت شاعرنا المغترب من الاعماق ، وحركت فيه الحنين الى السفر ، والتوق الى معانقة الأهل والاحباب ومهد الحب

والذكريات · فالوابور فى لغة أهلــه صعيدنا ودلتانا هو القطار ، وهو فى الغنوة الشعبية رمز للارتحال ، رمــز الوصول الى أرض الوطن ··

لا غرو فشاعرنا ممتلىء ليس فقط بالحنين الى الوطن بل أنه ممتلىء بالوطن كله ، على الأخص تراثه الشعبى الغنى · والتراث الشعبى المصرى حافل بأغنيات الاغتراب ، فجميع أغنياته ومواويله وحكمه لاتخلو من لمسة عميقة تعبر عن الشعور بالاغتراب ، حتى اغنيات العديد والندب تقوم هى الأخرى على الشعور العميق بالاغتراب ، واغنية العديد المصرية لاتندد بالموت فحسب ولا بالفراق فقط بل تندد فى الدرجة الأولى بمأساة الاغتراب فى هذه الدنيــا ، التى تجعل من الموت ارتحالا الى الدار الصحيحة :

« دخل الحكيم يركز على النبوت »

« روح بلادك ياغريب لتموت »

هكذا ينصح الحكيم ــ أى الطبيب ــ فى هذه البكائية المصرية مريضه أعظم نصيحة وأحكمها ،وهى عبارة موجزة تكتب « روشتة » العلاج الحقيقى : « روح بلادك ياغريب لتموت » · وأنه لمن الغريب حقا أن تكون هذه برشامة العلاج فى بكائية مصرية كان من المفروض ان تتحدث عن مناقب الفقيد ومحاسنه وعن الشعور بالفجيعة فيه · ولكن الشعور بالاغتراب لابد يداهمك أينما توجهت بين اغانينا ومواويلنا

القديمة • على أنه ليس ذلك الاغتراب الذى عرفه الادب الأوروبى المعاصر ونعنى فقدان التواصل بين البشر وفقدان الثقة فى اللغة والمنطق والمنجزات العلمية على السواء ، انما هو اغتراب أصيل أساسه عمق الشعور بالتواصل . والثقة فى اللغة وفى كل شىء ، ولذلك فهو يعكس الحنين الى قيم انسانية عظيمة يعتقد الوجدان الشعبى فى وجودها ولا يريد ان يكفر بها ، وهذه الاغنيات والمواويل والامثال ليست فى حقيقة امرها سوى خطوات يقطعها الوجدان الشعبى فى محاولة الوصول الى هذه القيم القمم التى تدهورها الأزمنة الرخيصة ، والأزمنة الرخيصة هى أعدى أعداء الوجدان الشعبى المصرى ، وليس فى الوجود قوة تتمتع بالنذالة والخسة وقلة الأصل سوى زمن أغبر نذل ووغد ، فمثل هذا الزمن الأغبر هو الذى يجعل من النذل سيدا على الأصيل ، ومن الخسيس متحكما فى الثمين . وهو الذى يندد بأبناء الأصول والكرام ويسحق كل القيم الشريفة •

الاغتراب فى اغنياتنا وتراثنا الشعبى اذن هو اغتراب نوعى يعكس الشعور بالمنفى ، لكنه المنفى الداخلى ، الذى يحسه الناس داخل الوطن • ونشأة هذه الاغنيات وهذه المواويل فى حد ذاتها هى ارتفاع الصوت المنفى الداخلى ، هى أصوات القيم الانسانية والحضارية تستــــغيث طالبة العودة الى وطنها المستلب ، ومن الذى استلب منها الوطن؟

انها الذئاب البشرية التى من مصلحتها انتشار الفوضى ، والخفافيش التى يهمها أن يسود الظلام ·

ذئاب وخفافيش يحملون اسماء البيك والباشا والبرنس يعيثون فى الأرض فسادا ثم يستلبون روح من يتصدى لهم · وكيف للاغنام أن تعترض على انياب الذئاب ؟ ··

« يابهيه وخبرينى ع اللى قتل ياسين »

« قتلوه السود عينيه من فوق ضهر الهجين »

فى منفاه تأمل الشاعر « نجيب سرور » هذا المـوال الفولكلورى المصرى ، تأمل حيرة الموال فى بحثه عن القاتل الحقيقى لياسين · هى قصة حب شعبية حدثت فى أرض الصعيد ذات يوم وراح « ياسين » ضحيتها حماية لتقاليد بالية أو خلافات قبلية تمنع نشوء هذا الحب ، ولذلك فان « بهية » تلخص قصة الحب ومغزاها تلخيصا شعريا مكثفا وجميلا بقولها : « قتلوه السود عينيه » على اعتبار أن فتاها « ياسين » عشق عينيها السوداوين بسبب حبها ·

لكن الشاعر « نجيب سرور » يكتشف القاتل الحقيقى لياسين · ان الذى قتل ياسين ليست عيونك يابهية وان كانتا تستحقان ان يموت الانسان فى حبها ، انما الذى قتل حبيبك «ياسين» هم خفافيش الظلام ، هم الذئاب ، الباشوات الاقطاعيون الذين يسلبون كل شىء حتى حقك وحق ياسين فى الحب ، أولئك الذين يمتلكون البشر كامتلاكهم للأرض والانعام ··

أما أنت يا « بهية » فمنفية ، انت الأخرى تعيشين ذل المنفى من الداخل ·

وهكذا قرر « نجيب سرور » ان يكتب رواية « ياسين وبهية » الشعرية ليعطيها ابعادها الحقيقية · ثم بدأ يكتبها فى منفاه لينتهى منها قبل السماح له بالعودة الى أرض الوطن بأسابيع قليلة ، فكانت كأنها معزوفة طقسية قادمة بأنغامها العذبة من بلاد الوطن تحمل له خبر انعتاقه من المنفى · ومن شاهد هذه الرواية الشعبية على المسرح أو قرأها فى كتاب فلابد يحس بأن نجيب سرور قد عكس فيها احساسه العميق بالمنفى · ولذلك فان هذه الرواية الشعرية تعتبر امتدادا لاحساسه بجحيم المنفى ، أو بمعنى أصح هى رؤية أخرى للمنفى فى أعماق أخرى بعيدة ··

أنه يبدأ الرواية معلنا بأنه يقص عن بهوت ، ثم يقص عن ياسين ، عن بهية ، هو بالدرجة الأولى معنى بشىء هائل قد حدث فى بهوت ، ذلك هو ثورتها ، فى المنفى الداخلى ، محاولتها التاريخية للانعتاق ، « وبهوت » قرية مجاورة لقرية « اخطاب » كانتا معقلا من معاقل الاقطاع الذى بلغت ذروة طغيانه قبيل نهوض ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ · ومن المعروف أن حالة الصدام بين باشوات الاقطاع والفلاحين فى قرية « بهوت » قد وصلت الى الثورة المسلحة ، حيث هب الفلاحون بعد طول تحمل ومرير صبر فرفعوا السلاح ضد الباشا وأعوانه وكبدوه خسائر فادحة·

هذا حدث تاريخى معروف · ومن المؤكد أن شاعرنا قد عاش فى صباه الباكر مراحل هذا الصدام وحمله فى وجدانه بين رصيد ذكرياته . ولمس جوهر الصراع الحقيقى عن قرب ، ولابد أن حبه لهذه القرية قد فاق لكل حد ، فهى تمثيل لوطنه الأم ، ولابد أنه قد وجد فى تفاصيل محنتها كثيرا من ملامح « بهية » فى الموال الشعبى الذى اغتال حبها دون ذنب ، صحيح ان الموال الشعبى المشهور يسجل قصة الحب المجردة المعنية بتفاصيل حدث درامى خالص يتلخص فى مأساة فتاة اغتيل حبيبها بلا ذنب الا لكونه أحبها وعشق عينيها السوداوين ولم يكفها ذلك فجيعة بل هى تصبح مسئولة ، لا من قبل الحكومة أو النيابة مثلا ، بل من قبل الموال الذى هو تمثيل للضمير الشعبى العام ، ويكون عليها أن تتحمل مسئولية البحث عن قاتله الحقيقى ، وهذا بالطبع خبث فنى من الموال الشعبى تميز به على طول الزمن ، اذ أن الموال الشعبى يدرك بادىء ذى بدء ان «بهية» غير مسئولة عن قتل حبيبها « ياسين » بل انه يعرف تمام المعرفة من هو القاتل الحقيقى والمجرم الحقيقى ، مع ذلك فان الموال الخبيث يدعى عدم معرفة ذلك فيتقمص موقف الضمير الشعبى العام الذى يعرف أنه سوف يدين «بهية» لابد على ارتكاب جريمة الحب فى مجتمع قبلى يرى المرأة عورة ويحرم عليها الاتصال بغير زواج شرعى حتى من له الحق فى الشرع لا يرى زوجته الا بعد عقد قران شرعى ! · يتقمص الموال الشعبى هذا الموقف ليسخر منه بالغ

السخرية · هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليعطى لبهية حق الدفاع عن نفسها لكى ينتهز الفرصة الفنية ويقـــدم الحقيقة من بزامها ، منها هى كطرف أصيل فى الجريمة وان لم تشترك فى صنعها أو تنفيذها ·

تتسع نظرة « نجيب سرور » الى أبعد من ذلك ، فيرى فى الحدوتة الغرامية جوانبها الاجتماعية والاقتصـــادية والتـــاريخية ، فيدرك ان الجوهـــر الحقيقى للصـــراع لايمكن أن يكون غراميا فقط ، وان ياسين حين أحب «بهية» لاشك قد خاض صراعا رهيبا ضد قوى طبقية معينة تحلكمها قيم قبلية معينة لها قوامها الاقتصـــادى المعين ، لابد أن « ياسين » الذى قتل فى سبيل حبيبته « بهية » كان مثله فتى بريئا يحلم بتحقيق العدالة الاجتماعية ويؤمن بأحقية كل انسان فى أن يحب ويسعد ويتزوج من يحب · فقصة حب ياسين وبهية اذن لم تحدث بمعزل عن الصراع الحقيقى المتعاظم وأكبر دليل على ذلك هو الفجيعة الكامنة فى الموال الشعبى الذى يحكيها ، وتبعا لذلك فياسين مجرد رمز لكل قوة شابة تثور على طغيان الاقطاع والظلم وتذود عن شرفها مهما كانت قوة الطغيان ، أنه فكرة درامية أبدعها التراث ، ومن ثم يصبح من حق أى فنان معاصر ان يســـتخدمها استخداما فنيا ، ليس شرطا عليه حينئذ ان يلتزم بتفاصيل ماحدث فى الموال فى زمان ومكان معينين ، ومن حقه ان يطلق اسم «ياسين» على كل بطل يرى فيه مقومات «ياسين» واسم «بهية» على كل فتاة فى جوهرها تفاصيل نفس المأساة

لأن الاسمين هنا يتحولان الى «تيمة» درامية فنية يمكن تداولها فى جميع انحاء الوطن بل فى جميع انحاء الاوطان الشبيهة بوطننا ٠

وحينما ذهب النقاد والجمهور لمشاهدة هذه المسرحية أو هذه الرواية الشعرية ، كانوا يتوقعون مشاهدة الحدوتة الغرامية الشهيرة التى يرددها الموال والتى كان لها أصل واقعى فى احدى بلدان الصعيد ٠ فاذا بهم يجدون ياسينا آخر وبهية أخرى وفى بلدة فى الوجه البحرى هذه المرة تدعى «بهوت» ثم كان ان عرض القضية على مستوى آخر ٠ صحيح ان قصة حب تشبه القصة الأصلية موجودة ، ولكن تفاصيلها الحقيقية ذات ابعاد أخرى ، انها ليست قصة اذن بل قضية ، والحب فيها ليس يطلب لياسين وبهية فحسب بل يطلب لجميع الناس ، لتأمين مستقبل الناس وأطفال الناس ٠ تأمينها ضد من ؟ ٠٠ ضد الذئاب فى «بهوت» ؟ هم « الديابة » من الباشوات الاقطاعيين ٠ هاهو ذا ياسين يطلب تمام الفرح بالدخول على ابنة عمه حبيبة القلب «بهية» ولكن الفرح يتأجل باستمرار لضيق ذات اليد حيث انهم يعرقون ليحصد الباشا ثم ان الباشا يتآمر على والد ياسين فيدخله اللومان ليصبح الفرح بعد ذلك مستحيلا ، ثم اذا بأذناب الباشا يطلبون «بهية» للعمل فى قصر الباشا مثل معظم بنات القرية وهنا يكون صبر ياسين قد نفد ، وارتعد قلبه امام تصوره لما يمكن أن يحدث لبهية فى قصر الباشا من شرخ للشرف ، فيندفع ثائرا ، ويؤلب

القرية كلها على الباشا ، فتهب يدا واحدة فتحرق قصره ، ويموت ياسين شهيدا فى المعركة ، وصــــحيح أن موت «ياسين» كان اشعالا لشــرارة الثورة ، ولكن «بهية» فى النهاية قد حكم عليها بالنفى فلا هى احتفظت بحبيب قلبها الذى سيخلصها من أسر الفاقة وانياب الذئاب ، ولاهى تخلصت بالفعل · ويكون ختام المسرحية هذه الابيات :

فى البدء كان الجوع فى بهوت

وجائع أنا من عام

كالطير فى شتاء بوادبست

لاشىء فى المدى ·· سوى الجليد

لكنها حكاية مريرة

مريرة كالخبز فى المنافى

وربما اقصها عليك ذات يوم

وهكذا يربط الشاعر بين مصيره ومصير «بهية» التى نراه قد انعطف عليها باعتبارها تمثيلا لحقيقة الوضـــع الذى يعيشه وطنه ، وضع المنفى فى الداخل ، وقد ارتفعت بعض الأصوات النقدية تأخذ على الشاعر الصاق اســم ياسين وبهية ببطلى روايته الشعرية رغم ان الرواية لاتقدم النص الأصلى لقصة الحب الواقعية المعروفة فى الموال ، ونسوا ان للشاعر فلسفة هامنا ،فهو يعرف بادىء ذى بدءان

مثل هذا السؤال سوف يثار ، ولكنه ترك لفطنة القارىء أو المشاهد اكتشاف فكرة البعث الفنى الذى يرى ان واقع بلاده يطرحه • وارتفعت أصوات أخـــرى تصف الرواية بانها ليست مسرحية وليست تلتزم بأى من قواعد البناء المسرحى المتفق عليها ، ونسوا أيضا ان الشاعر أطلق على عمله رواية شعرية ، ولكنها تحمل امكانية العرض على المسرح • لقد استفاد الشاعر من أسلوب الحكى الشعبى ، استلهم الموال ، وكتب ما يشبه الموال الدرامى الذى يلخص الحدث الدرامى والشخصيات الى عناصر درامية يحتويها شكل الموال ويضفى عليها من كثافة الشعر مايجعل منها مرآة لأمة باسرها فى وضع انسانى معين ،

وتجيء مسرحيته التالية «آه ياالليل ياقمر » ، التى هى جزء من مسرحية تحمل اسم ياسين وبهية ، بمثابة امتداد جديد لموضوعه ولرؤيته داخل الزمن من خلال تنبيه لموقف «بهية» الذى نراه فى زمن جديد على مستوى آخر • تبدأ مسرحية (آه ياليل ياقمر) من حيث انتهت مســـرحية « ياسين وبهية » لنفهم ان «بهية» حينما حكم عليها القدر بفقدان حبيبها مخلصها « ياسين» أصبحت تنجذب الى «الوابور » ـ القطار ـ ذلك ان ياسين كان يحلم بالسفر ، بالانطلاق ، بالانعتاق من العبودية عله يجد فى بلاد الله الواسعة سقفا آمنا يأويه معها لكنها ارغمته على البقاء فى بهوت لكى يلاقى حتفه اخيرا بسببها ، مثله مثل ياسين الموال: « قتلوه السود عينيه » لكن ليس من فوق ظهر

الهجين – اى الجمل – هذه المرة بل من فوق ظهر الباشا الذى حلم ذات يوم أنه يمتطيه وقد امتطاه فعلا يوم حرض الفلاحين على حرق قصره ليقع شهيدا فى سبيل عيون بهية وعيون الفلاحين فى بهوت بل فى مصر كلها ، وكانت «بهية» ترفض تصديق الواقع وتظن انه لابد قد سافر ولابد حتما ان يجيء ذات يوم ، وهاهى ذى تنتظر صفير الوابور كل يوم تحت ظل النخلتين الذى شهد جلوسهما معا طويلا ٠ وقد جاءها ياسين بالفعل ولكنه فى صورة جديدة وهيئة جديدة واسم جديد ، صحيح ان اسمه «أمين» ، وان شغلته ، عطشجى فى وابور الطحين ، ولكنه نفس الجوهر الذى كان يحمله «ياسين» خاصة وأنه كان صديقا حميما لياسين ، اشترك معه فى حب «بهية» وحب«بهوت» ، واشترك معه فى الثورة واشعال الحريق فى قصر الباشا ، وبناء على هذه الأمارات الكثيرة والوشائج الوثيقة التى تربط امين بحبيب قلبها «ياسين» تنجذب بهية الى «أمين» وتحبه ، ويستيقظ حلمها من جديد ، فاذا كان سوء حظها قد لاحقها مع الفلاح فلعل حسنه يحالفها مع العامل ٠ والجدير بالذكر ها هنا ان الشاعر مثل اهل «بهوت» جميعا يؤمن بتناسخ الارواح، ولابد تبعا لذلك أن تكون روح ياسين قد حلت فى شخص أمين وهذا ماقد حدث ، والشاعر هاهنا لا يلجأ لهذه اللمحة لتبرير وضع فنى بل انه يلتقط به ملمحـــا رئيســـيا فى الشخصية المصرية خاصة فى وضعها وقتـــذاك اذ كانت البلاد تؤمن بأن زعيما جديدا سوف ينسلخ من روح الزعماء

الوطنيين القدامى ليحل فى شخص شاب جديد يخلص البلاد من فكاك الذئاب ٠

. . .

فلا عجب أن ترى «بهية» فى شخصية «أمين» العطشجى مخلصها ، لكنها حين تتزوجه تفتح عينيها على الحقيقة المرة التى تؤكد لها ان الحياة فى «بهوت» مستحيلة فى ظل سيطرة الذئاب ، وتسلم مرغمة بالسفر مع زوجها «أمين» الى بور سعيد حيث يعمل فى كامب الانجليز لقاء الفتات والبقايا ، لكنه كان يجىء كل ليلة سكرانا يهذى ، لقد بدأ يحس بالذنب ، بالوضاعة ، فها هو ذا يسكر كل ليلة من فضلات الانجليز اعداء بلاده فى حين يمـــوت رفاق له بمدافعهم فلا يثنى ذلك رفاقا آخرين عن مواصلة الثورة ٠

. .

وسرعان مايصحو ضمير «أمين» فينضـم الى فيالق بور سعيد ، ثم تتصاعد الثورة فتحترق القاهــرة ويموت «أمين» ضمن مئات الشهداء من بور سعيد ٠٠ يحكم على «بهية» بالنفى مرة أخرى ، كأن ثمة نذيرا بالمرصاد لها ينفى حلمها بالخلاص ، وتصبح البلاد كلها ـ فى شخصها ـ فى موقف لاتحسد عليه «مالم ينقذ الناس القمر» ٠ وفى انتظار بزوغ هذا القمر المنتظر يبزغ الحلم فى نفس بهية من جديد فى مجىء ناس يشبهون ياسين وأمين يمسكون لها بالقمر ٠ واذ تكون بهية نصف نائمة حزينة تحلم بأنها تمسك القمر بين يديها يردد الكورس نيابة عنها :

القمر من غير ايدين ··

القمر مشلول حزين ··

قد حزنك يابهية !

مين يفكه ·· يفك ضيقته ؟ ··

مين يحل العقده عنه ··

عن رقبته ؟!

القمر فوق بور سعيد ··

لسه طالع من شوية ··

والجثث محبوسه جوه ··

فى العنابر يابهية ··

الجثث مترصصة ··

ع البلاط ومرصرصه

والقمر شاهد وشايف ··

القمر شايف ومن غيظه اتخنق

وان لبهية جولة ثالثة فى الجزء الثالث من هذه الثلاثية الدرامية التى تقوم ببطولتها بهية وعنوانــه (قولوا لعين الشمس) ، حيث تلتقى بهية هذه المرة بالجندى ، لتكون

قد جربت حظها مع الفلاح والعـــامل والجندى ولتكون الثلاثية بذلك قد غطت احداث التاريخ المصرى المعاصر تبدأ بارهاصة الثورة ثم بالثورة لتنتهى بمأساة نكسة يونيو ٠

وتجىء مسرحية (آه ياليل ياقمر) تحفة فنية رائعة بحق لم نشهد لها مثيلا من قبل فى مسرحنا الشعرى ، ان شاعرنا فى هذه المرة يقدم مسرحية بكل معانى الكلمة ولكن بشكل متطور جدا متقدم جدا ، فى التكنيك والرؤية الفنية ، اننا هنا امام شاعر فحل ومسرحى فحل أيضا ، يستفيد من منجزات المسرح الملحمى التعليمى عند بريخت ، واقفا على أرض راسخة من الكلاسيكيات الدرامية التقليدية ، فتراه يستغنى عن كثير من الزوائد بل يكاد يستغنى عن الحـــدث نفسه كفعل يحدث على خشبة المسرح ، ان الحدث ليس هدفا بالنسبة له ، هو ليس يريد ايهامك بحدث درامى واقعى تشاهده وأنت مخدر تلهث وراء مصير ابطاله ، انما هو يعنيه من الحدث ابعـــاده وشـــــحناته الانفعالية وزاده الانسانى ، والشاعر تبعا لذلك يستخدم شكلا كلاسيكيا مرنا يتسع لمحاولات كثيرة خلاقة ، ذلك هو شكل الكورس الذى يروى الأحداث ولقد تعود مؤلفو الكلاسيكيات المعاصرة ان يحولوا الأحداث الدرامية العنيفة التى قد تصدم المشاهدين بقسوتها أو قد يستحيل تنفيذها ، الى حدث محكى ، يحكيه الكورس او تحكيه الشخصيات ، فيكون ذلك اكثر تاثيرا وعمقا مما لو شاهد المشاهدون الحدث كاملا فعليا ٠٠

على أن « نجيب سرور » يقوم بتطوير فكرة الكورس ها هنا جاعلا بينه وبين الموال الشعبى وشيجة فنية ثقافية ، فاذا كان الموال الشعبى فى «ياسين وبهية» يمثل الضمير الشعبى العام فان الكورس فى « آه ياليل ياقمر » ـ اضافة الى وظيفتـه الاغريقية القديمة ـ يأتى ممثلا للضـــمير الشعبى العام هو الآخر بل ممثلا لكل الاطراف المعنية فى هذا الموضوع ، ان الكورس ها هنا هو البطل الرئيسى ، باعتباره الجموع الواقع عليها الضيم والظلم والطغيان ، والافراد مهما عظم شأنهم كياسين أو أمين أو بهية فانهم ينبعون من الكورس حينما تحتاجهم اللحظة الدرامية ثـم سرعان مايحتويهم الكورس من جديد · وهذا الشكل الغنى المرن قد اتاح للشاعر فرصة الغوص فى أعماق الجماعة وضمير الجماعة وتراث الشعب الذى كان فى الواقـــع نتاج مواقف كهذه فى زمن مضى ·

الفصل الرابع

هجرة المستقبل وانتحار الامنيات

حين شرعت فى قراءة مسرحية « قولوا لعين الشمس» تبين لى من أول كلمة أنها هى الجزء الثالث من ثلاثية « ياسين وبهية » وليست مسرحية « آه يا بلد » التى أعلن عنها فى قائمة مؤلفاته باعتبارها الجزء الثالث · ومعنى ذلك ان « نجيب سرور » ليس له مسرحية بعنوان « آه يابلد » ، ولابد أنه غير هذا العنوان فى آخر لحظة وجعله « قولوا لعين الشمس » ·

وقد تداعت الى ذاكرتى بعض أخبار عن هذه المسرحية اثناء فترة التدريب عليها فى فرقة المسرح القومى وكان ذلك منذ سنوات طويلة مضت ، فقد كان « نجيب سرور » هو القائم باخراجها ، وكانت ثمة خلافات بينه وبين الفرقة من ناحية وبين الرقابة من ناحية أخرى وصلت الى عنق الزجاجة حتى ضاق صدر « نجيب » فترك المسرحية مبعثرة على مائدة التدريبات واختفى ، وجيء بمخرج شاب لعله

« توفيق عبد اللطيف » ـ ان لم تخنـــى الذاكرة ـ ليعيد اخراجها من أول وجديد • ولست أذكر ان كانت قد عرضت أم لا ولكننى لم أشاهدها ولم اكن قد قراتها بل لم اكن اعرف حتى انها منشورة فى كتاب الا فى هذا الوقت الراهن حين فوجئت بها معروضة لدى تاجر يقوم بالمساهمة فى النشر ، وقد ساهم فى نشر اعمال نجيب سرور ، فبالاضافة الى هذه المسرحية نشر له ديوان الرباعيات وديوان « بروتوكولات حكماء ريش » ـ الذى نفذ ـ كما اعاد نشر المســرحيتين السابقتين • على ان اعجابنا بهذا الناشر الخاص لا ينفى محنة لكتابنا وشعرائنا الذين يموتون فى سنوات الخصب وتتبعثر اعمالهم هنا وهناك بدون طبعات معتمدة وكاملة تتيح للنقاد والدارسين مهمة دراسة اعمالهم ، ويكفى ان كاتبا مسرحيا كبيرا كميخائيل رومان صاحب العدد الوفير من المسرحيات المصرية المهمة يعجز النقاد والدارسون حتى الآن عن تجميع اعماله التى لم تنشر ولم تجد من يعمل على نشرها ، وقد حاولت تجميع أعماله ، وجاءنى شاب يكتب رسالة لدرجة الماجستير عن مسرح ميخائيل رومان وحاولت مساعدته فى الحصول على اكبر قدر ممكن من اعمال ميخائيل رومان وقيل لى ان معظمها لدى بعض اصدقائه من النقاد ! •

وربما كانت هذه المحنة هى بعض ما أثر فى شخصية « نجيب سرور » تأثيرا سلبيا ورسخ فى نفسه الاحساس باللاجدوى واللاأهميـة لأى شـــىء ، ونحن نلمس هذا

الاحساس عند نجيب سرور فى كل اشعاره ومسرحياته ، فهو دائما أبدا يردد معنى القطة التى تأكل أولادها بمعنى الأم التى تغتال ابناءهـــا فى عز شبابهم • لقد لكان هذا المعنى هو أحد الهموم الرئيسية التى حملها نجيب سرور وعبر عنها واغتالته أيضا ، نعـــم هذه الهموم هى التى اغتالته فى عز شبابه ، حينما صدمه الواقع وفجعه فى كثير من القيم الاخلاقية والانسانية • لقد فوجىء نجيب سرور أنه مطلوب ـ مثل مثله الاعلى ـ أن يحارب نوعـــا من طواحين الهواء ، وقد كان مستعدا ـ نفسيا ـ لمحاربتها لو كان اقتنع ان الحرب معها يؤتى بنتيجة أى نتيجة •

ان أعداء نجيب سرور الذى رأى ان الواقع المصرى يطفح بهم هم الذئاب البشرية من أكلة لحوم البشر ومن اللصوص والمرتشين والخونة ، فى مواجهة شـعب طيب أعزل • فى ظل هؤلاء الذئاب تظل « بهية » ـ التى ترمز فى المسرحية لمصر ـ نهبا للضياع غارقة لشـــوشتها فى المأساة •

انتهت مسرحية « آه ياليل ياقمر » بموت «أمين» زوجها العامل الذى كان صديقا لياسين حبيبها القديم الذى مات بدوره فى حريق سابق يشبه الحريق الذى مات فيه «أمين» •• وتبدأ مسرحية « قولوا لعين الشمس » فى فترة زمنية لاحقة ، حيث نرى « بهية » وقد صارت أرملة مسئولة عن طفلين هما « ياسين » و « أمينة » أولاد زوجها الشهيد «أمين» ، وقد استوطنت فى بور سعيد حيث صفير البواخر

والمراكب يهز قلبها • ان صفير البواخر يشبه صفير القطار وكله يذكرها بالسفر والارتحال ، لقد أصبح السفر جزءا من حياتها والارتحال مكتوبا عليها ، ان يرتحل عنها كل من تحبه ويرتبط به قلبها لقد كتب عليها وحدها ان تدفع ثمن هذا الارتحال ، ان تدفع ثمن النضال ضد اعداء الوطن فى الداخل والخارج على السواء •

فى حوار لبهية مع الكورس نفهم ان العسكرى «عطية» الذى كان فى المسرحية السابقة ياتمر بأمر الحكومة لينفذه على الشعب قد تقدم ليخطب «بهية» ولكنها ترفض طلبه ، ليس كرها بل نذرا نذرته بأن تعكف على أولادها فلا تدخل رجلا غريبا • لكن مصيرها يشغل بال امها كما يشـــغل الكورس أيضا ، اذ ماذا ستفعل وهى أرملة بطفلين ؟ هل ترجع الى بهوت ؟ مستحيل طبعا فلم يعد لها فى بهوت شىء ترجع اليه حتى الحمام هناك قد هجر البناتى منذ هاجرت هى من بهوت • اذن فليس أمامها سوى الزواج ، هكذا ترجوها امها لكنها تتشدد فى الرفض درءا لشبح المأساة وخوفا من تكرار الموت • يعرض عليها الكورس ان تشتغل اى شغلة ولتكن خادمة مثلا فى البيوت ، لكن الأم تستنكر هذا تقديرا لذكرى ياسين على الأقل ، لقد مات ياسين من اجل أن يحمى «بهية» من هذا المصير على وجه التحديد ، من أن تكون خـادمة سـرير فى بيوت السـادة الباشـوات والاقطاعيين ، خاصة ان هذا الكورس الخبيث ـ وكـل الكورس فى مسرح نجيب سرور خبيث غاية الخبث لأنـه

يمثل الضمير الجماعي للشعب المصرى ـ يلمح لهـا ان السادة الجدد ليسوا باشوات ولكنهم سادة بصورة جديدة تفوق الصورة القديمة ويستطيع الكورس بخبثه المعهود ان ينتزع من بهية اعترافا بحبها للعسكرى عطية خاصة بعد ان اثبت لها صدقه ، لقد شارك العسكرى فى القيام بالثورة وتحقق انتماءه الحقيقى لجموع قوى الشعب العاملة المطحونة ، وتحقق ـ من ثم ـ حبه لبهية ، أنه فى النهاية جزء من طيبة قلب هذا الشعب الذى يعفى ان قدر ، يعفى حتى عن جلاديه وسفاحيه على مدى التاريخ ، هى الطيبة التى تجعل من « عمر مكرم » يسلم حكم البلاد للارناؤوطى فى لحظة كان يستطيع فيها ان يسلمه لأهل البلاد ، وهى التى تجعل عرابى يمسك عن اطلاق الرصاص على الخديوى فى لحظة امتلك فيها القوة المزدوجة ، قوة السلاح وقـوة الشـعب من ورائه ، وهى التى تجعل من عطية لايطلق الرصاص على الملك وهو يودعه عند خلعه صبيحة الثورة المباركة ٠

ولقد هاجرت « بهية » من بور سعيد الى السـويس فهاجر وراءها « عطية » ، بعد ان عاش معها لحظة الحريق الهائل الذى تفجر فى بور سعيد والقى عليها ظلالا من المجد لايمحى من تاريخ بور سعيد ، وقد كانت « كل حاجة فى بور سعيد فيها حاجة من بهية » ، وكل شىء فى عطية فيه شىء من ياسين ومن أمين ، ولقد استمعت بهيـة الى صوتيهما معا حينما تقدم لها عطية فى السويس يطلب يدها

بنفس العبارات التي قالها لها أمين وهى تندب ياسين ٠ لكنها مع ذلك تجاهلت ميل قلبها وفضلت أن تنذر نفسها لتربية ولديها ، وهكذا صارت وأمها تسرح بالمشنة فى شوارع السويس تبيع الجبن والسمن والزبد ٠ وكبر ولداها ياسين وأمينة ودخلا المدرسة وأصبح حلمها يتجدد وينذر بعودة « ياسين » فى زمن جديد ٠ واما عطية فقد كان فى الأصل بناء يساعد أباه فى عمله ، وقد وجد فرصته فى أسوان حيث بدأ يتحقق هناك مبدأ العمل الحقيقى مجد الثورة الحقيقى فى بناء السد العالى ٠ ولكنه مايلبث ان يعود مهيض الجناح فاقدا أحد ذراعيه ، وكان حريا به أن يقبل هذا القضاء والقدر بصدر رحب ، فهو دليل مجد فى النهاية ، فقد أكل الجهل ذراعه أى نعم ولكن عطية فى النهاية لم يكن واحدا بل كان جيشا كاملا يصغر تحته الجبل ويتضائل وكلما تضاءل ازداد كبر الجيش أى ازداد كبر عطية فى نفس الوقت ، فلا بأس من أن يفقد عطيه أحد ذراعيه طالما قد انهزم الجبل امام ارادته ليعاد ترتيبه من جديد فيصبح جبلا آخر بالشكل الذى نريد فى المكان الذى نريد ليحقق الغرض الذى نريد ٠

على ان هذا المجد تشرحه المحنة حينما يكتشف عطية ان الذئاب يطاردون كل مجد كبير ويحاصرونه لو أده فى مهده ونهب خيره ، ان محنة هذا البلد الأمين هى على طول الزمان فى كثرة عدد الذئاب والثعالب الذين رصدهم المتنبى ذات يوم بعيد ٠٠ « وقد بشمن وما تفنى العناقيد » ٠

لقد احيل عطية ــ كما يقول ــ الى الاستيداع ، انيط به عمل كتابى فى أحد المخازن ، فاذا به يوضع فى محك مباشر مع اللصوص والنهازين والمغامرين والبائعين ذممهم وشرفهم وتيجانهم ، يشجعهم على ذلك اتساع الماعون ولكثرة المحتوى ، واللصوص فى كل العصور اشقياء أغنياء أقوياء ، ورغم اقتناع عطية بذلك كشىء يرثه وجدانه حتى فى الأغانى ، فانه حاول المقاومة بل حاول الاصلاح ثم هبطت قواه الى القناعة الشخصية وحماية نفسه على الأقل ، ثم انتقل الى عمل باحدى الشركات فى السويس ·

وهكذا التحم الود من جديد وبات عطية يغازل حبيبته بهية فى شخص «أمينة» التى غدت عروسا حلوة كالسكر ، ويطلب منها القبلات كعلاج حرره له الطبيب فى الروشتة ، ويتودد الى «ياسين» كما الأب أو أكثر وكانوا يحبونه . وقد باتت بهية تود لو أنه عاد فنطق برغبته فى طلب يدها لكى توافق فى الحال ، لقد كان محكوما عليها بألا تبدأ هى بالمبادرة وتطلب يده والا جرحت كبرياءه اذ ان طلبها حينئذ يكون اشفاقا عليه وعطفا بعدما ألم به من مصاب · وبات هو فى نفس الوقت يتمنى لو انها تنطق مصرحه بالموافقة ، ولكنه يمنع نفسه من المبادرة ليقينه انها لو وافقت فسيكون ذلك لمجرد العطف عليه لا أكثر فبقى هذا الفاصل النفسى قائما بينهما ولكن العلاقة بقيت قائمة بكل صفاء ومحبة ·

وتكون الأسرة قد كبرت وانضم اليها الموسيقى «حمدى» ذلك الموسيقى البائس ، الذى يسكن معهم فى نفس البيت ، ويعود كل ليلة سكرانا يغنى الأغنية الشعبية الشهيرة : « قولوا لعين الشمس ماتحماشى احسن حبيب القلب صابح ماشى » نفس الاغنية الشعبية العريقة التى فيها نذير بالسفر والارتحال ، والخوف الشديد الى حد المأساة المؤلمة من هذا السفر ، خوف يحمل الحب الكبير العظيم ، الحب الذى يرقى بنفسه الى ان يناشد الشمس ان تترفق فى هذا اليوم على وجه التحديد يوم سفر الحبيب وحمو الشمس نذير باللهب ، واللهب قضاء لا محالة فيه وليست الاغنية تطلب رده بل تطلب اللطف فيه · انها الخلفية النفسية والتاريخية لمأساة بهية ، يرددها « حمدى » الموسيقى التعيس فتكون علامة حضوره ، مصحوبة بالصخب وارتفاع صوت المأساة من جانبها المدوى ، فالشاب التعيس « حمدى » ، لايعرف سببا لتعاسته ، فاذا كانت البلد بلد شهادات فقد حصـل منها على لكذا وكيت ، وان كان على الموهبة فانه لديه الكثير منها ، ورغم ذلك فهـا هو ذا غـــريب كاليتيم على مائدة اللئام ، لا أحد يريد الاعتراف به ، لا يعتـرف به الا من يعجزون عن تقديره ماديا ، وهكذا فان موهبته عجزت عن سد مطالبه حتى حانة ينى التى يجرع فيهـا من منقوع البراطيش كل يوم لنسيان مأساته فلا هو ينساها ولا هو قادر على الامتناع عن الشراب ، فحقيقة الأمر أنه يشرب لأنه لايجد شيئا حقيقيا يفعله ليمتص هذه الطاقة الحيوية الكامنة فيه ، وحقيقة الحقيقة ــ ان صح التعبير ــ ان مثل

مواهبه الفنية الصادقة ليست تنفع فى مثل هذه السوق الجبارة التى يسيطر عليهـــا الرخص ، وانحطاط الذوق وانعدام الذمة حتى فى الفن :

هنا ممنوع الغنا ..
الا بشهادة مرور ..
من شهادة فى الموسيقى ..
« يخرج من جيبه مجموعة من الاوراق »
شوف معايا كام شهادة ؟ ..
المعاهد بره مصر ..
كلها شهدت لى .. الا هى مصر ..
ـ وده ليه ياحمدى افندى ؟
ـ زرعنا بيفرش لبره ..
حييجى جوه .. يبقى قرع ..
حاجة زى الطشت قاللى ..
لى ياللى ..
ماعلينا ..
العقود .. الشرط نور ..
امضى بس القبض بره ..
بره .. بره .. بره .. بره ..

كله ٠٠ كله ٠٠

على بـــره ٠٠

وهكذا يكون نجيب سرور قد رسم صورة شاملة لوضع الفن حسبما يراه من خلال بطله « حمدى » الموسيقى التعيس عاكس من خلالها مأساته الشخصية ومأساة كل الفنانين الصادقين ذوى الرغبات النبيلة فى الارتقاء بمســـتوى وطنهم وتوصيله الى بر الامان ، لقد وضع على لسان بطله « حمدى » كل حرارة احساسه بالقرف ونفوره من حالة الفن التى من المفروض انها تعكس حالة الضمير والشهادة على العصر ٠٠ فماذا يفعل فنان صادق الحس ناضج الموهبة وطنى المنزع امام دعوة تسود :

تيك مى بـره ٠٠

بره كايرو ٠٠

مش لكايرو ٠٠

يعنى هاجروا ٠٠

اطفشوا وسيبوا البلد ٠٠

اجروها بفرشها ٠٠

طب لمين ؟! ٠٠

للمقاولين الاجانب ٠٠

يعنى يني وشركاه ٠٠

وترد عليه بهية قائلة :

بطلوا ده واسمعوا ده ..

بره مصر ؟؟

ياندامه ...

طب دا يوم يابهوت ماسبتك ..

كنت زى شباره طالعة ...

للفضا .. من ميه حلوه ..

واترمت على رمله سخنه ..

فيرد عليها « حمدى » مؤكدا أنه لن يرحل عن بلاده مثل الراحلين ، لادراكه ان المحنة الحقيقية للبلاد هى فى ارتحال الكفاءات عنها الى أى مكان وراء أى حجة وبأى سبب ان المحنة الحقيقية كما يلخصها حمدى هى :

حمدى : الحكاية مش موسيقى ..

الحكاية واسعة خالص ..

المدرس ..

المهندس ..

أى واحد فى البلد يفهم كويس ..

ياعطيه فى أى حاجه ··

على بره ··

لو كبابجى ··

لو فطاطرى ··

لو منجد ··

فاكر السلطان سليم ؟؟؟

ــ يطلع أيه ؟

ــ لم كل الحرفجيه فى كل حاجه ··

ــ وعلى اسطامبول وطار ··

يعنى تهجير ياعطيه ··

وبهذا تلتحم مأساة حمدى الموسيقى فى نظر بهية بمأساة كل من ياسين وأمين وعطية ، ويكون الزمن قد أوغل فى المسير حتى صار ابنها ياسين جنديا يخدم فى الجيش عن وطنية صادقة دافقة ، وهاهى ذى البلاد فى وضعها ذاك ــ مقبلة على الدخول فى محنة كبرى جديدة تضاف الى قاموس المحن فى تاريخها الطويل مع المحن · يعود الشبح فيتراءى لبهية فى صورتى « ياسين » و «أمين» ، ليحذر كلاهما هذه المرة :

احذرى من خمسة ستة

احذرى من خمسة ستة

احذرى من خمسة ستة !

وتصرخ بهية طالبة معرفة خمسة ستة يعنى ايه ؟ لكن الشيخ الذى سبق ظهوره فى آه ياليل ياقمر يظهر من جديد قائلا لها :

شد حيلك ..

اللى جاى يابهية اصعب ..

م اللى فات ...

والحذر ...

عمره ماينفع قدر ...

واللى مكتوب على الجبين ..

العينين لازم تشوفه

... ...

هاتى ايديك واتبعينى .

وتتبعه الى صليب فوق منصة تصعد معه . يسمرها الى الصليب ، بينما تشتعل النار من حولهما ، ثم يدخل ياسـين الابن مع مجموعة من الفتيات يرتدين مرايـل

المرضات وكذلك مجموعة من الفلاحين والعمال ، وبالتدريج ينخرط الجميع فى رقصة نارية هى مزيج من الايقاع الجنائزى والقتالى بينما تتلوى بهية على الصليب مع الايقاع فى قلب السنة النيران ثم يهبط الستار على الفصل الثانى ٠

ويكون ذلك تمهيدا بل نذيرا بالمصير المحقق الذى ستؤول اليه بهية ، التى هى انعكاس لحالة البلاد ، فهى من البلاد ، والبلاد منها ، وابنها وابنتها وحبيبها منخرطون جميعهم فى أتون المعركة التى استؤنفت فى العام السابع والستين ، حيث سميت بالمصطلح العام الشهير بالنكسة ، وحيث فقدت فيه بهية كل شىء ، كل شىء ، حتى حمدى الموسيقى ينتحر ، وتجد « بهية » ان الأمر فوق ماتحتمل ، فكم شربت من مرارة الغربة ؟ لكن الكورس يغريها :

– الهزيمة مرة ايوه ٠٠

بس برضو مش حكايه

كل شعب ينهزم ٠٠

معركة واتنين والف ٠٠

المهم الانتصار ٠٠

فى النهاية ٠٠

ولأن بهية ــ مصر ــ والكورس ــ الشعب ــ يعرفون
عداءهم الحقيقين الذين يتسببون فى كل هزيمة وكل فقر
كل اغتراب ، فان « بهية » تطالبهم بأن يغنوا غناء يذكرهم
ائما بما حدث ، ويردد الكورس :

ــ واحذروا من خمسة ستة ..

خمسة يونيه ..

واكرهوهم ..

واكرهوا اللى مايكرههم ..

حرموهم يرقدوا .

حرموا عيونهم تنام ..

واحلفوا ماتخافوا منهم ..

اصلهم بيخافوا منكم ..

بس خوفهم هم اكتر

واللى خوفه اقل يغلب ..

واللى يتعب يتغلب ..

.. ..

ويمين بالتين وسينا والزيتون

لو هانرقد كلنا تحت التراب ..

ماهتركع أرض مصر ..

تحت رجلين الكلاب ..

وعند هذا التحذير تنتهى المسرحية .. لنرى ان نجيب سرور قد حقق فيها مستوى من الفن المسرحى الرفيع لم تعهده المسرحية الشعرية العربية من قبل ، حيث يختلط الزمن الماضى بالزمن الحاضر بالمستقبل فى بوتقة الموقف المسرحى ، حيث يعطى الموقف ايقاع الفعل الدرامى التراجيدى دون ان نرى الفعل نفسه ومع ذلك نراه خيرا مما لو مثل امامنا بشكل مباشر ، اننا بهذا الأسلوب الذى يتبعه نجيب نتمكن من رؤية الفعل ورد الفعل معا فى لحظة واحدة مضيئة وغنية . وفى هذا الجزء ما تحقق فى الجزئين السابقين من تمثيل جيد للوجدان المصرى الخالص ، فنحن نرى المأثور الشعبى الفولكلورى بصياغاته البدائية يذوب فى المعطيات المعاصرة بصياغاتها المتمرسة المصقولة دون ان نلحظ أي تفاوت فى مستوى الصياغة .

وقد درج نجيب سرور فى كل مسرحية أو عمل شعرى على ان يسوق ـ قبل بداية العمل ـ مجموعة أقاويل ومأثورات تتمثل فيها ثقافته ومتابعاته والمامه الجيد بجوانب موضوعه وحقيقة جوهره ، لايقصد بها استعراض ثقافته أو معارفه وانما يقصد تنوير القارىء بتسليط بعض الأضواء غير المباشرة على موضوع المسرحية موحيا للقارىء أن موضوع المسرحية لن يخرج عن هذه الحدود

وما عليك الا أن تتأمل هذه المقولات لتفهم المسرحية حق الفهم · ونلاحظ ان معظم الاقاويل والمسرحيات التى يوردها ـ بالاضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفلاسفة والشعراء القدامى والمحدثين ـ تجىء مقتطفة من التراث المصرى الفرعونى ، مما يعمل على تأصيل أعماله فى جذور وطنية بعيدة المدى ··

ومن الواضح ان « نجيب سرور » متأثر تأثرا قويا جدا بأسطورة ايزيس واوزوريس المصرية ، اسطورة الخصب والنماء وصراع الخير مع الشر · و « بهية » فى حقيقة أمرها ليست الا ايزيس المعاصرة التى يغتال حبيبها كل يوم ، نعم هى ايزيس التى حكمت عليها زبانية الشر بالنفى الى الأبد وراء حلمها المبعثر فى كل مكان ·

الفصل الخامس

تناسخ الأرواح ٠٠ تناسخ الأحلام ٠٠ تناسخ الأزمنة !!

تتجذر اسطورة ايزيس فى وجدان الشـاعر « نجيب سرور » تجذرا عميقا باعتبارها تلخيصا بديعا لشخصية مصر وقدرها التاريخى المفزع والاسطورة كما نعرف تضع شخصية « ايزيس » كرمز للخصب والنماء اللذين عرفت بهما أرض مصر الطيبة ، وتضع زوجها الأمير «اوزوريس » رمزا للخير المطلق والبراءة المطلقة ، والملك « ست » رمزا للشر المطلق الذى يتحكم فى الامة المصرية ، و « حوريس » رمزا للثورة والرغبة الدائرة فى الانتقام من جذور الشـر المتأصلة فى هذه الأرض ٠

وتقول الاسطورة ان الملك « سـت » حقد على اخيه « اوزوريس » حقدا مريرا لفرط حب النـاس لـه ، فدبر للخلاص منه ، فأقام على شرفه حفلة حضرها علية القوم ولفيف من المتآمرين الذين تعج بهم جيوب السلطنة ، وكان قد أعد تابوتا ثمينا على مقاس أخيه « اوزوريس » وأعلن

أنه سيكون هدية لمن يجيء على مقاسه ، وهكذا كان على الجميع أن يجربوا التابوت أو الصندوق المطعم ، واحــدا وراء الآخر ، فلا يطابق مقاسهم ، الى أن جاء الدور على « اوزوريس » ، فنهض بكل براءة مثل الآخرين ونام فى الصندوق التابوت لكى يجربه ، والأمر كله فى صـــورة ضحك ومزاح ولهو وحفلات ، فلم يكد يتمدد فى الصندوق حتى أسرع رجال أخيه « ست » فأغلقوا الصندوق اغلاقا محكما ثم رفعوه وألقوا به فى قلب النيل لتحمله الأمواج الى شواطىء مجهولة بعيدة · لكن زوجتــــه « ايزيس » العظيمة التى كانت تحمل فوق لقب الامــارة خصـــائص الفلاحة المصرية الأصيلة ، صممت على استعادة زوجها بأى شكل ومهما كان الثمن ، وقطعت رحلة طويلة مضنية تعقبت فيها رحلة الصندوق وتسقطت اخباره حتى عرفت مستقره ومآله فتذرعت بالحيل حتى التقت بمن آل اليهــم الصندوق واستعادت زوجها حبيبها رمز الخير · على ان زبانية الشر المتربصين بايزيس يعرفون الخبر فينقلونه الى « ست » الذى يأمر فى ثورة غضبه بالقبض عليه ، وفى هذه المرة يأمر بتمزيق جثته أربا ، ويتم توزيع هذه القطع فى جميع انحاء الأرض حتى يستحيل بعد ذلك استعادة هذا الكيان الخطر الذى يهدد عرش أخيه الذى لم يكن متجبرا فقط بل كان الها للشر بصورة مطلقة · الا ان « ايزيس » لا تدخر وسعا فى استئناف الأمل من جديد · وتقول الرواية الشعبية للاسطورة ان النيل قد جف وساد القحط البلاد

بعد تمزيق جثة « اوزوريس » الحبيب وتوزيع اشلائها فى كل مكان ، وان « ايزيس » ظلت تبكي حزنا على فقيدهـــا حتى تكون من دموعها النهر من جديد ، وانها تمكنت من تجميع اشلاء جثة زوجها ودفنتها فى أرض مصر الحبيبة ليعود الخير والنماء الى اهلها من جديد ، وتمكنت كذلك من تربية ابنهما « حوريس » وسقيه بماء الثورة حتى ينتقم مِن قاتل أبيه الذى هو فى نفس الوقت عمه ٠٠ الخ الأحداث التاريخية المتعاقبة ٠٠

والمعنى الجليل الكامن فى أعمـــاق هذه الاســـطورة المصرية العظيمة ـ كما لعله واضـــح ـ ان تجميع جثة « اوزوريس » انما هو رمز قوى وعميق يشير لتجميع روح مصر على أمل واحد تتماسك فيه الأمة وتظهر عبقريتها من خلاله ، فكأنما هذه الاسطورة التى وضعها الخيال المصرى الخصيب هي بمثابة النذير الذى يظل يدوى فى أعمـــاق الأمة ابد الدهر مذكرا اياها بمأساة ايزيس التى هى فى حقيقة الأمر مأساة مصر بكل حذافيرهـــا دون زيادة أو نقصان ، ومطالبا الاجيال ـ ان استنامت أو اخذها سبات تحت ظل يكتم الانفاس ـ بأن يعيد مجد ايزيس العظيمة ٠٠

واسم « ايزيس » كما ننطقه اليوم هو النطق اليونانى الذى كان يضيف حرفى الياء والسين لنهاية كل الأسماء ، فاسمها المصرى اذن هو « ايز » ، وكذلك « اوزوريس » اسمه المصرى « اوزير » ، وهكذا كل الأسماء الواردة فى

هذه الاسطورة العتيدة · وهناك روايات شعبية واجنبية كثيرة للاسطورة لكنها فى النهاية لاتختلف عن جوهرهـــا التاريخى المدون فى البرديات القديمة وعلى جدران المعابد والصخور المصرية القديمه ، وكل الاضافات هى من قبيل اختلاف التأثيرات الايجابية المتعددة التى تتركها الاسطورة الأصلية فى نفوس قرائها ، حيث تنقل خصـــوبتها الفنية المتدفقة الى اخيلة القراء فاذا هم بشوق لاعادة حكايتهـا مضافا اليها احساسه الخاص بها الذى قد يعطيها طابعا بيئيا مختلفا لكنه لايلغى مصريتها بل يظل الطبع الجديد مجرد تأثير مصرى خالص ، كذلك يظل جوهر الاسطورة فى النهاية واحد ··

وقد خلبت هذه الأسطورة لب الشعراء والمؤلفين مثلما جذبت اهتمام الدارسين والمؤرخين ، فحاول الشـــعراء والكتاب استلهامها فى أعماق فنية تعكس معانى معاصرة ، واذا تجربة « توفيق الحكيم » فى مســـرحيته الشـــهيرة « ايزيس » هى أشهر هذه المحاولات فتحت يدى أكثر من عشر نصوص مسرحية منشورة على مدى قرن من الزمان لكتاب مسرحيين وشعراء منسيين لم يرد ذكرهم فى المصادر التاريخية الفنية أو ريبرتوارات المسارح أو دراسات النقاد مع ان مستواهم الفني كان جديرا كل الجدارة بكل ذلك الا انه طبع أوضاعنا الأدبية والفنية تغرم دائما بالواحدية فى كل المجالات أو بالثنائية ، واذا كان كل مجال فنى يشتهر منه اثنان أو أكثر فانك لابد تجد واحدا بعينه قد استقل

بالشهرة وانصب عليه كل الاهتمام وكل الاضواء تلاحقه في حين يبقى انداد له في الظل الكئيب ، وابدا ابدا لاينبغي ان نعتمد على الأسماء المشهورة حين تؤرخ لاى من المجالات الفنية فى مصر ، فكل مشهور فى مصر لايعنى بالضرورة انه الأفضل أو الأقوى أو حتى المميز ، فكم يطوى تـراب النسيان من مواهـــب عظيمة فى أرض ايزيس السخيـة المعطاء ، انها نفس الاسطورة ، نفس الجوهر ونفس المعنى يجرى فى عروق هذه الأرض يسبل خيرا على صفحاتها وبردياتها وأيامها ٠

وكل المواويل الشعبية المصرية رغم ان مؤلفيها لــم يقرأوا التاريخ الفرعونى بل وربما لم يسمعوا به مطلقا ـ تعكس روح ايزيس الأصيلة الحائرة الصابرة المتجولة فى كل انحاء الوادى ٠ والفاصــل الزمنى بين الاســطورة المصرية انما هو هذه الستارة الضبابية السميكة المتكونة من كثافة الشعور بالاغتراب ، كفلذات أكباد انفصلت عن أم لها منذ أزمنة بعيدة ومن يومها وهى تطلق عقيرتها بالصياح منادية على امها بشـفرات متعددة تجربهـا فى المواويـل والأغنيات والتاليف الدرامية ، كثافة الاغتراب فى المواويل تقول دون ان تقول ان أمهـــم ايزيس قد حققت العدالـــة بنفسها ، بصنع يديها ، بفعل مادى خالص حققت به البطولة الخارقة واستحقت ان تكون ملكة بل آلهة للخصب والنماء، لقد صنعت بدموعها النهر وجمعت اشلاء الحبيب وسمدت به أرض البلاد ٠ اما هم ، أصحاب هذه المواويل فانهـــم

يبحثون عن العدالة ، يندون بمساوىء الحياة المعاصرة وبضياع القيم العظيمة التى عاشت ومـــاتت من اجلهـا « ايزيس » وان صراخ الألم فى أعماق المواويل يعلو كأنه يستنهض روح ايزيس لتبعث فى الوادى من جديد ، كذلك تستنهضها كل الحواديت التى تتخذ لها ابطالا كســت الحسن والجمال والشاطر حسن ، بل ان سلوكنا التراثى واليومى حتى الآن لايزال – فى اللاوعى – يستنهض روح ايزيس فى زياراته الدائمة لقبر الحسين والامام الشافعى والأولياء ، اننا جميعا نبحث عن العدالة التى حققتهـا ايزيس بنفسها ذات يوم بعيد كما تشير دراسات العلامـة المصرى المعاصر الدكتور « سيد عويس » ..

وأصالة الشاعر « نجيب سرور » تتضح باجلى قواها وتوهجها فى احساسه الرائـــع بهذه الرموز الأجنبيـة والاساطير الاغريقية القديمة التى انغمر فى ثقافاتها خلال دراساته فى أوروبا الشرقية ، مثلما حدث بالنسبة لغيره من المبعوثين ، اذا به يزداد احساسا بمصريته ، بقوميته التى هى مزيج حيوى من الفرعونية والقبطية ، والاسلامية ، والى ذلك أدرك الشاعر « نجيب سرور » منذ وقت مبكر أنه لكى يكون شاعرا متفردا بحق ، معبرا عن امته بصدق ، عليه ان يكون تمثيلا لثقافته القومية التى تكون منها وجدانه وعقله وتربى عليها خياله ، ولعله فى ظل احساسه العميق بالاغتراب عن أرض الوطن فى ظل ثقافة أخرى مختلفـة وسلوك آخر مختلف ، تيقظ فيه الاحساس بالوطن واظلت

رموزه الخاصة من تراثه القومى ، انه يستفيد فقط من الثقافة الأجنبية فى امتلاك الادوات الفنية واتساع الرؤية واثراء ابعاد التجربة • وجل مثقفى الغرب العظماء هم من أفراد عائلته اذا كان ما قالوه يتفق مع طموحات أهله ويعبر عن آلامهم واحلامهم المعذبة ، وأقوالهم المأثورة لديه حين ترد فى اعماله الفنية ترد متضفرة بأقوال شخصيات مصرية مستقاة من التراث الشعبى المصرى أو التراث الرسمى العربى متعانقة فى اتفاق عجيب ، حيث تكشف عبقرية الشاعر « نجيب سرور » عن هذه العلاقة الأصيلة بين أقاويل الناس وحكمهم فى جميع انحاء البلاد ، فأحساسه المرهف باللغة والفن يكتشف هذه العلاقات القولية من خلال اكتشافه لنوع المعاناة بين هذه الاطراف الانسانية المختلفة البلاد والبيئات ، حيث تبدو المعاناة واحدة بين ابى العلاء المعرى العربى ودانتى اليجرى الايطالى ونجيب سرور المصرى وياسين بطل الموال الشعبى الصعيدى وحسن بطل الموال الشعبى المصرى الصعيدى أيضا ، بل ان ياسين وحسن ليسا غريبين عن هاملت أو عن دون كيشوت أو عن اوزوريس ، انهم جميعا من الضائعين نبلا على مذبح العدالة استتبات الخير وشيوع الانسانية الراقية ، ليست بهية ونعيمة بغريبتين عن انتيجون او اليكترا أو بنيولوبى أو غيرهن من بطلات الاساطير والمسرحيات العالمية •

و « نجيب سرور » بهذا لا يخلع على ابطال المواويل الشعبية مضمونا اثقل من وزنها الحقيقى كما يقول بعض النقاد ، كذلك ليس من حقنا ان نطالبه بتغيير اسـماء ابطاله طالما ان تفاصيل الحدوتة مختلفة عما وردت به فى المواويل الشائعة ، كما قال نقاد آخرون ، فحقيقة الأمر ان القائلين بهذا غفلوا عن ان الجوهر الدرامى للحدوتة واحد فى المواويل والمسرحيات ، كل ماهنالك ان الشاعر بحسه ومواهبه وثقافته لكشف عن ابعادها الاجتماعية ومضمونها الثورى والفكرى الكامن فيها ، ذلك انـه ليس عبثا ان تشيع مثل هذه المواويل الدرامية هذا الشيوع الخرافـى لمجرد انها تتحدث عن قصة حب درامية ، صحيح ان الموال ربما لايكون قد صرح بأكثر من هذا ، ولكن هذه القصة الغرامية التى تنتهى هذه النهـايات الفاجعة ليسـت فى الحقيقة سوى الشفرة الفنية السرية التى يفهم منها الناس ما تحمله من مضمون حقيقى خفى لايجب التصريح به ٠٠ ان مجرد التلميح يكفى عن التصريح ، ويكفى لدفع الواقع بالسلطوية الاقطاعية الجهنمية التى تكمم الافواه ، ان حدوتة الحب المجردة التى يحكيها الموال هـى صرخـة الاحتجاج على القمع وتكميم الافواه وتجبر السـلطات الاقطاعية المتحكمة ، وعلى المستمع ان يدرك بقية التفاصيل وهو لابد مدركها ٠٠

وهكذا يتمكن الشاعر « نجيب سرور » من رفع قيمة التراث الشعبى المصرى المعاصر ، وهذا دور هام يحسب

له ، ان الفنان العظيم هو الذى يبحث فى الشخصية القومية عن ينابيع الحكمة والبطولة ، وعن القوى الخـارقة فى نفوس اهلها ، وعن جوانب العظمة ، لكى يبرز كل ذلك ، ويضع له تماثيل معاصرة يحب الناس رؤيتها وتمثلها ، بل ان الفنانين العظماء فى الدول التى بلا تراث على الاطلاق يعمدون الى محاولة خلق تراث اممهم ، باعمـال فنية يؤلفونها باعتبارها واقعا يحدث ، وبفضل عبقرياتهم يصبح بالفعل واقعا يجرى ، وحقا ان الفنان الحقيقى الملتزم ليس هو من يحاول دفع الواقع وادانته بل هو الذى يخلق الواقع الذى يريد ويتمنى ، فحلمى كفنان هى ان يتغير الواقع الى احسن ، ودورى ان انتخب من هذا الواقع عناصره الايجابية المشتتة فأؤلف بين شتاتها فى واقع فنى يعكس كيفية ان يتغير الواقع بالفعل الى احسن ، اصنع تمثالا فنيا حيا لما يجب ان يحدث ويتحقق حسب رؤيتى الفنية كفنان ملتزم ٠ وملتزم ليس ـ كما هو شائع ـ الملتزم بأفكار معينة يمكن وصفها بالمستوردة او المتطرفة أو ما الى ذلك من أوصاف نسـتعيذ بالله منها ٠٠ انمـا الملتزم يعنى الملتزم بالقيـم الانسانية والأخلاقية الخالدة ، الملتزم بموقف اخلاقى ضد الظلم بجميع انواعه والطغيان بجميع مستوياته وضد كـل ماهو غير انسانى وغير شريف ٠٠

وهكذا يفعل الشاعر « نجيب سرور » فينتخب العناصر الايجابية فى التراث الشعبى ، فى شخصيات ابطال المواويل ويسلكها فى خيط جديد يتشكل منه واقع فنى يعكس الواقع

الذى لابد قد كان وان تم بصورة اخرى على نحو آخـر ، فموت ياسين ومأساة بهية وموت حسن وصبر نعيمة كل ذلك غير منفصـل عن الظروف الاجتماعية والاقتصـادية والسياسية فى ذلك الوقت ، وهى كلها عناصر ايجابيـة حقيقية تعكس روح ايزيس الأم ، التى تراها فى شـخصية بهية ثم فى شخصية نعيمة فى مسرحيته الأخيرة « منين أجيب ناس » .

فى هذه المسرحية يعكس نجيب سرور فهمه الرائـع لاسطورة ايزيس ، وتجسيده الفنى المتجلى لحقيقة جوهرها ، لكون ان هذه البلاد التى نكبت ـ تاريخيا ـ بسيطرة قوى الشر على مقدراتها سواء من الخارج أو من الداخل،تمزق وحدتها وتبعثر شخصيتها القومية ادراج الرياح ، كقدر محتوم ! .. يصبح مقدرا عليها فى نفس الوقت ان تتجمع اشلاؤها المبعثرة لتواجه هذه القوى الشريرة التى تتوافد وتتآمر عليها من كل مكان تستهدفها قوى التقدم الشيطانى الحديث وتجعل منها شغلها الشاغل .. مأساة مصـر الحقيقية ليست فى ضعفها كامة بل فى تصـدع بنيانهـا الاجتماعى ، فى تمزق وحدتها ، وتشتت اشلائها ، فهى فى أمس الحاجة الى روح ايزيس تجمعها من جديد ، ليعـود الخصب والنماء الى البلاد فشبع الابناء فينمو الاحسـاس بالهوية فى نفوسهم ..

غير أن «ايزيس» الجديدة المطلوبة لمصـرنا سـوف

تعترضها صعوبات ومخاطر اشد من ان تحتملها شخصية معاصرة ، سوف يكون مطلوبا منها هى الاخرى ان تصنع من دموعها نهرا جـديدا فوق هذا النهر الذى صـنعته « ايزيس » ، حيث تصبح مضطرة الى وضع عينيها فى خطو الموج اينما اتجه بحثا عن جثة حبيبها الذى يضمها النهر ٠

انها جثة « حسن المغنواتى » التى قتلها غرماء الحبيبين من اهلهما وعبأوها فى زكيبة القوا بها فى النهر ٠

يلتقط الشاعر « نجيب سرور » هذا الحادث الغنائى البسيط بل الشائع فى قرانا ، ليصمد به الى ذروة درامية عظيمة على المستويين الفنى والفكرى بدرجة لم تتحقق له فى مسرحياته السابقة ، ولذلك فاننى اميـل الى اعتبار مسرحية « منين اجيب ناس » اكبر مسرحية وضعها الشاعر « نجيب سرور » بل هى من اكبر المسرحيات الشـعرية العربية المعاصرة ، حيث جاءت مسرحا خالصا ، يعكس شعرا غنائيا خالصا ، وشعرا غنائيا خالصـا ، ويعكس مسرحا غنائيا صرفا ، حيث تحققت فى ذلك أعلى امكانيات حققها المسرح الشعرى الغنائى ، واذا كنا ندعى اننا بحاجة الى مسرحية غنائية يلحنها عبد الوهاب أو زيد من الملحنين ليعيد بها امجاد المسرح الغنائى فان هذا الادعاء كاذب تمحوه مسرحية «منين أجيب ناس»،انها فى رأينا مسرحية غنائية لابد ان تخلق سيد درويش جديدا لا محالة ، فحوارها ليس فقط موزونا كله يمكن تلحينه من أوله الى آخـره ،

وليس فحسب يحمل صورا شعرية خلابة ذات معان صافية ثرية ، بل انه فوق ذلك كله ايقاعات موسيقية شعبية صرفة لاينقصها الا موسيقى شفاف مصرى المزاج يلتقطها فيملأها بالاداء المتنوع الانغـــام · هذا فضلا عن أغانيها التى ترددهــا جميــع الطوائف الشــعبية المصــرية التى هى اطراف معينة فى موضوع المسرحية وانه لخطير بل وجليل ··

فهذه « نعيمة » بنت الموال الشعبى المصرى الشهير قد كتب عليها ان تعيش نفس المأساة التى كتبت على جدتهـا « ايزيس » : ان يقتل حبيبها غدرا ويلقى به فى النهر جثة فى زكيبة تغترب هى الاخرى فى النهر ، كل بر ترسو عليه يدفعها بقوة شيطانية الى النهر من جديد هربا من مسئوليتها لقد كان « حسن » داعيا الى الحب والاخاء فى ظل عدالة انسانية هو اذن قبس من « اوزوريس » يتغنى به « حسن » فى الأفراح والليالى الملاح ، الليالى التى لاتكون ملاحا الا به وبمواويله الصادحة ، لكنه وان صرح فى اعماق الجميع ونطق بآهاتهم وتنهداتهم الا أنه نادى بغير المشروع الواقع، ذلك الذى هو فى الأصل مشروع ، ان يحب الانسان ، وان يعلن حبه على الملأ ، وان يطلق للعواطف العنان حتى تشبع ـ ولن تشبع ـ من الغناء فى الحب لكى تتجدد احلى ممـا كانت تعطى بعضها البعض ذلك الدفء الانسانى العظيم الذى بدونه لاتطاق الحياة ·· على ان النظام الاقطاعى للمجتمع ينسف هذا الحق وان اعترف به فى اعماقه ! هو

مجتمع الجوارى ، والحريم ، والقيم المادية الخالصة الذى تتحول فيه الانثى من كائن انسانى يتشكل منه عصب الانسانية الى مطية ، الى شىء يمتلكه الانسان ويهدر انسانيته،مجتمع تسود فيه مثل هذه القيم الى حد فى منتهى القسوة حين يعمد الى خصى الانثى،متوهما ـ وبالعماء ـ انه بذلك يحمى شرفه حين يقتل فى الانثى مصدر متعتها الطبيعية الانسانية التى خلقها بها الله كسبب رئيسى لهذا الغرض وحده وما أشد اهميته فى التركيب الطبيعى للانسان منذ انفلاق الخليقة الى ذكر وانثى ! ..

هى قيم وعادات فاسدة لا تسود الا فى مجتمع اقطاعى راسخ يجعل من البشر اجراء وممتلكات وارقاء ، فطالما ان هناك سادة فلابد ان يكون ثمة من عبيد تقوم عليهم هذه السيادة ، وهو مجتمع يحرص على اشاعة القيم والعادات التى تخدم مصالح سادته ، يمارس الفسق والرذيلة فى الخفاء ، ويحارب الحب الشريف فى العلن ، ويحرم الحب على نصفه الآخر كله ، بل يستأصل فى انثاه رحيق هذا الحب .. مجتمع لا يقل عنفا وقسوة عن المجتمع الذى كان يحميه اله الشر « ست » والذى كان لابد له ان يتخلص من « اوزوريس » وهكذا قتل المغنى « حسن » فكان فى حياته مغتربا ويا له من اغتراب ، فهو الذى يوقظ الاشجان والعواطف ويقيم لياليها الملاح ، لا حق له فى ان يعيش هو الآخر مثل هذه الليالى الملاح .محروم هو من الحق الذى يدعو اليه ، وحين عبر عن مأساته الخاصة من خلال

مواويله فى الافراح ـ الهى عكست قصة حبه الشخصى ـ دفع الثمن حياته ، لتعيش جثته هى الأخرى تجربة الاغتراب فى قلب النهر الى الابد ··

وهكذا ايضا تتحول « نعيمة » الى « ايزيس » جديدة ، والمسرحية تلخيص غنائى درامى لبحث « نعيمة » عن جثة حبيبها وتعقبها وراء موج النهر ، وينجح الشاعر « نجيب سرور » فى تضفير الشخصيتين نعيمة وايزيس فى موقفهما المتوحد هذا · كذلك ينجح فى تضفير الاسباب الدراميــة المتوحدة بين المجتمعين القديم والجديد ، لنرى ان التفاصيل الاجتماعية واحدة وان اختلفت الاسماء وظواهر الاشياء · فى المشهد الأول يلتقى الفلاحون بالجثة الحائرة تبحث عن مثوى اخير ، ثم تظهر نعيمة لتتسقط الاخبار ، وفى رحلتها التى بلغت ثلاثة فصول ضافية باثنى عشر مشهدا حافلة تلتقى « نعيمة » بكل الاطراف المعنية وتدخل معهم فى حوار غنائى بديع يكشف ابعاد القضية على حقيقتها ، من مشهد الى مشهد يتضح بعد جديد يشى بصعوبات هائلة يستحيل معها رد الغريب وضم الرفات ، لكن نعيمة لا تيأس ابدا ، بل لا يزيدها الاظلام سوى اشتداد الرغبة فى ألق الضوء · ويقول لها الصيادون : « يانعيمة نرجع ليه ·· ولا نسافر ليه ·· والوعد صيادنا ·· ع الشط مواعدنا ·· يانعيمة قولى لحسن ·· القبر هو الزمن ·· واللى الزمن قبره ·· البحر ده بره » وكانوا لتوهم ـ كما اخبرتهـا

الحوريات ـ قد خلصوا جثة « حسن » من شباكهم بواسطة الحكومة ودفعوها الى النيل من جديد · اذن فهل راح حسن وانتهى الأمر · هكذا تسال « نعيمة » صارخة ، لكن ·· مستحيل ·· هكذا تصرخ « نعيمة » وهى ترمى بنفسها على الأمواج تلحق بالجثة قبل ان تختفى من جـديد فى المجهول وتضطر لاستئناف الرحلة وراءهـا من جديد · وتوصيها الحوريات بوصية تلخص ما سـبق ان فعلته « ايزيس » من قبل : « طلعى راسه ادفنيها ·· هنا ·· فى الرمل ·· ده ·· هو راسه وراسه هوه ·· والتراب ده ترابه يعنى ضرورى يرجع ·· له معاد زى القمر ·· ييجى فيه ·· بس لما الدنيا ضلمة كحل ·· عارفة ايه يعنـى الرقوبة ؟ ·· الرقوبة بيضة كنا نحطها فى البلد تحت الفراخ ·· علشان ترجع تبيض فى الخنة تانى ·· افتحى فى الرمل خنة ·· حطى فيها الرأس ·· هايرجع طيرهـا تانى كلنا بنرجع ياحلوه فى شكل طير » · وهكذا تفعل نعيمة بالفعل ، ليعبر الشاعر من جديد عن ايمانه بتناسخ الأرواح ، وان « حسن » لابد ان تستنبته الأرض من جديد ليعود مثلما عاد ياسين الموال فى ياسين المسرحية وعـاد ياسين المسرحية فى شخصية أمين فى آه ياليل ياقمر ثم عاد أمين بدوره فى شخص عطية فى قولوا لعين الشمس وهكذا ايضا يعود ياسين الموال فى ياسين المسرحية وتعود ايزيس فى نعيمة ، ومجرد تسجيل نعيمة لرحلتها هذه التى

عاشتها هو زرع لها فى ضمير الأمة وزرع لنبتة « حسن » الذى لابد ان يعود من جديد بأى اسم وعلى أى نحو ·

ومثلما تعود كل هذه الشخصيات وهذه القيم فى حلول جديد باسماء جديدة لتحقق حضورا اضافيا جديدا ، فان شخصية « نجيب سرور » هى الأخرى سوف تعود فى حلول جديد ، لقد كان نبتة يانعة فى حقل المسرح الشـــعرى العربى المعاصر ، وقد بعثرت اشلاؤه حيا كما بعثرت اشلاء اوزوريس ، لكنه ترك من صلبه أكثر من ايزيس تلم اشلاءه وتزرعه فى أرض مصر الخصـــيبة ·· وغدا تورق منـــه الفروع اليانعة ·

صـدر للمؤلف

روايات

١ ــ اللعب خارج الحلبه ٠٠ الهيئة العامة للكتاب ٠٠ نفد

٢ ــ السنيوره ٠٠ الهيئة العامة للكتاب ٠٠ نفد

٣ ــ الأوباش ٠٠ الكتاب الذهبى ٠٠ نفد

٤ ــ رحلات الطرشجى والحلوجى ٠٠ كتاب اليوم ٠٠نفد

٥ ــ الشطار ٠٠ الهيئة العامة للكتاب ٠٠ نفد

٦ ــ فلاح مصرى فى بلاد الفرنجه ٠٠ دار المعارف ٠٠ نفد

٧ ــ العراوى ٠٠ دار المستقبل العربى ٠٠

٨ ــ الوتـد ٠٠ دار الفكر

١٠ ــ فرعان من الصبار ٠٠ دار الهلال

قصص قصيره

١١ ـ صاحب السعادة اللص ·· دار الهلال ·· نفد

١٢ ـ المنحنى الخطر ·· دار الهلال ·· نفد

١٣ ـ أسباب للكى بالنار ·· مختارات فصول ··

دراسات أدبية

١٤ ـ محاكمة طه حسين ·· مؤسسة الدراسات والنشر ببيروت ·· نفد

١٥ ـ فتح الأندلس ·· الهيئة العامة للكتاب ·· نفد

١٦ ـ فى المسرح العربى المعاصر ·· دار المعارف ·· نفد

١٧ ـ عمالقة ظرفاء ·· دار المعارف ·· نفد

مسرحيات

١٨ ـ صياد اللولى مسرحيتان غنائيتان ·· الهيئة العامة للكتاب ·· نفد

١٩ ـ الخلاص ·· دار الطريق البيروتيه ·· نفد

فهـــرس

اهداء ٣

مدخـل ٥

المفصل الأول

دون كيشوت لم ينهزم ١١

الفصل الثانى

لزوم مايلزم الدون كيشوت فى جحيم المنفى . . ٢٥

الفصل الثالث

اغتراب الحلم فى المنفى الداخلى ٤٣

الفصل الرابع

هجرة المستقبل وانتحار الامنيات ٥٩

الفصل الخامس

تناسخ الأزواج تناسخ الأحلام تناسخ الازمنة . . ٧٧

مصادر للمؤلف ٩٣

روايات

قصص قصيرة ٩٤

رقم الايداع ٨٩/٤١٠٨

الترقيم الدولى ٩ ـ ٢١٤٧ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

●● كان نجيب سرور شخصية منفرده من جيله ، حيث تعددت مواهبه ، فهو شاعر ، وكاتب مسرحى ، وممثل ، وناقد ، ومعلم . ولكنه مع ذلك عاش أزمة نفسيه واجتماعيه لم يسبق لها مثيل ، حيث وقف على هذا الخط الخفى الفاصل بين الجنون والعبقرية . ترى هل أثرت شخصيته على فنه ؟ أم أن فنه تأثر بشخصيته ؟ وما هى عناصر أزمته بالضبط ؟ وما أسبابها ؟ .

ذلك ما يكشفه هذا الكتيب المكثف العميق ، الذى كتبه الروائى الكبير خيرى شلبى برؤية نقدية لعصر نجيب سرور ، متعاطفة مع نجيب سرور إلى حد كبير ، وفى نفس الوقت كاشفه لمواطن الضعف والأزمة فى شخصه وفنه .

●● الكتاب القادم

شاعر القصر الأزرق

تأليف : عبد المنعم شميس

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العا[illegible]